الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٨ — ١٣ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 158.

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 13 - 7 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٥٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ — ١٣ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

لَـــوْ ! . . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

رأيتُنى جالساً فى مسرح هزلىّ بمدينة اسكندرية كما يجلس القاضى فى جريمة يحمل أهلُها بين يديه آثامَهم وأعمالَهم ويحمل هو عقلَه وحُكمه . وقد ذهبت لأرى كيف يتساخَفُ أهلُ هذه الصناعة فكان حكمى أن السخافة عندنا سخيفةٌ جداً ....

رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما يُنشئ عيوباً جديدة ، ويسبحون بأيديهم سباحة ماهرة ولكن على الأرض لا فى البحر ، وتكاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمًى ظاهراً عما هى به حقيقة هزلية ؛ ولا غاية لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة والاسفاف والخلط والهذيان ، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذى يحضرهم ، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامية البليدة التى اعتادت من تكلف الهزل ماجعلها هى فى ذات نفسها هزلاً يسخر منه

ولا أسخف من تكلف النكتة الباردة قد خلت من المعنى ، لا تكلفُ الضحك المصنوع يأتى فى عقبها كالبرهان على أن فى هذه النكتة معنى

فالفن المضحك عند هؤلاء انما هو السخفُ الذى يوافقون به الروح العامية الضئيلة الكاذبة المكذوبَ عليها التى يبلغ من

بلاهتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها ، لفرط خفتها ورعونتها ، وطول ما تكلفت واعتادت . فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط فى الألفاظ ، والتضريب بين المعانى ، وإيقاع الغلط فى المعقولات ؛ ثم لا شيء بعد هذا . فلا دقة فى التأليف ، ولا عمق فى الفكرة ، ولا سياسة فى جمع النقائض ، ولا نفاذ فى أسرار النفس ، ولا جدّ يؤخذ من هزلية الحياة ، ولا عظمة تستخرج من صغائرها ، ولا فلسفة تعرف من حماقاتها

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهن لتحريك النفس وشحذ الطبع وتصوير الحقيقة صورة أخرى ، وبين ضحك هو صناعة البلاهة للهو والعبث والمجانة لا غير

***

وكان معى قريب من أذكياء الطلبة المتخصصين للآداب الانجليزية ، فلم نلبث غير قليل حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الانجليزى فجلسوا بحذائنا صفاً تلوح عليهم مخايل الظفر ، ولهم وقار البطولة ، وفيهم أرواح الحرب . وهم يبدون فى ثيابهم البيض المطرّاة (١) كأنهم ثلاثة نسور هبطت من الغمام إلى الأرض ، فلأعينها نظرات تدور هنا وهناك تنكر وتعرف

وأعجبنى أن أراهم فى هذا المكان الهزلى الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاث حقائق بين الأغلاط ، أو ثلاث أغلاط كبيرة ... وكان أبدع ما أراه على هيئة وجوههم وأسرّ له تواضع هذا الاستعداد الحربى وتحوله إلى استعداد للسخرية ...

ثم تأملتهم طويلاً فاذا صرامة وشهامة وسكينة ووداعة وحسن سمت وحلاوة هيئة فى جلسة رزينة متوقرة ، لا يشبهها فى حسّ النفس التى تعرف معانى القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مصوّبة

وجعلت أقلب عينىّ فى الناس الموجودين وملامحهم وهيئاتهم ثم أرجع البصر الى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصرىّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكاناً فى غيرها ، فهو من ثم لا يرحل ولا يغامر ولا تتقاذفه الدنيا ؛ وأرى الانجليزىّ كالمقتنع بأن كل مكان فى العالم ينتظر الانجليز . . . .

وخيل الى والله أن رجلاً من هؤلاء الانجليز الأقوياء المعتدين بأنفسهم لا يهاجر من بلاده إلا ومعه نفسهُ واستقلاله وتاريخهُ وروح دولته وطبيعة أرضه ، فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أىّ الرزق كان على ما يتفق ، بل رزقاً انجليزياً : أى فيه كفايته

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وجوه ، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى ؛ فنى تلك معانى السهولة والملاينة والحرص على مادة الحياة ، وفى هذه معانى العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها

وتبيّنتُ أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما فى فرد قد بَنَى أمرَهُ على أن أُمّةً تحمله فهو يعيش بأضعف ما فيه ، والآخر فى فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمةً فلا يدع فى نفسه قوة إلا ضاعفها

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة والتهويل والصراخ واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع وتحميل الألفاظ غير ما تحمل ، والآخر بالهدوء الذى يقهر الحوادث والصبر الذى يغلب الزمن والعقيدة التى تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها

وميّزت بين أثرين من آثار الأرض فى أهلها : أحدهما فى المصرى السَّمْح الوادع الألوف الحيىّ الذى هو كَرَمُ الطبيعة ، والآخر فى الانجليزى العَسِر المغامر النَّفور الملحّ على الدنيا كأنه تطفّل الطبيعة . . . .

***

وألقى ابن العم الذى كان معى سمعَه الى هؤلاء الضباط وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلى عنهم ، فقال كبيرهم : لقد فرغت من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خمول الشرقيين وأفضيتُ منه إلى حقائق عجيبة أظهرُها وأخفاها معاً أن أُمةً من هذه الأمم لا يُمَكَّن للأجنبى فيها ولا تثقل وطأتُه عليهم ولا يطول ثَواؤُه فى أرضهم ولا يحتلها من يطمع فيها ، ما لم يكن سادتها وأمراؤها وكبراؤها كأنهم فيها دولة محتلة

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد فى تعظيمهم ، وأن نمدّ لهم فى المال والجاه ، ونبسط لهم اليمين والشمال ، ونوهمهم أن عظمتهم هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم ... وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فاننا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وحرصهم وطمعهم أشياءَ اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين . ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبه له غاندى ذلك المهزول الهندى الذى تُقوِّم دنياه بأربعة شلنات ، ولا

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التى استعملت قديماً فى معنى (المكوجى) هى (المطرى) بتشديد الراء

يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم ، ولا بطش عنده ولا قوة فيه ، وهو مع ذلك جبار سماوى فى يده البرق والرعد يُرى ويُسمع فى أرجاء الدنيا

قال ضابط اليمين : وبصناعة الكبراء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجلَ تقليد بالطبيعة ، ورجل ذل بالحالة ، ورجل خضوع بالجملة ؛ فليس فى نفسه أنه سيد نفسه ولا سيدُ غيره ، بل أكبر معانيه أن غيره سيد عليه فيكون معه دائماً خيال استعباده

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يعز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ يصرخن فى الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن فى أوله : « عاوزين رِجَّالة تدَلَّعنا . . . . . » وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هى أيضاً امرأة محرومة ...

***

ثم أرهف المترجم أذنه فقال كبيرهم : إن لهؤلاء الشرقيين ست حواس : الخمس المعروفة وحاسة الخمول الذى خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسموه الترف والهزل واللهو ، والأمة الأوربية التى تحتلّ بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها . فعشرة آلاف جندى بعتادهم وآلاتهم لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدى وإثبات أنهم غاصبون ، ولكن ما أنت قائل فى عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواياته وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرُّقعاء الذين هم وحدهم معاهدة سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فن الاحتلال فن عسكرى فى الأول ولكنه فن أخلاق فى الآخر ؛ ولهذا يجب تعيين نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئة لامعة جذابة مغرية ولكنها فى ذات الوقت محرقة أيضاً ، وهذه هى صناعة إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسى الحاذق فى الشرق إلا أن يحمى الرذيلة ، فان الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه . . . فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب فى عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً : « يا حِلوة يا خفَّافى يا محنِّنة الشبان . . . »

***

ولما ألممت بحوار الضباط الثلاثة قلت لصاحبى : استأذن لى عليهم أكلمهم . ففعل وعرفنى اليهم وترجم لهم مقالة (ياشباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الانجليزىّ لو دخل جهنم لدخلها انجليزيا . . ولا أجحد أن له فى الحياة مثل هداية الحيوان لأنه رجل عملى دليل منفعته أنها منفعته وحَسْبُ ، ثم لا دليل غير هذا ولا يقبل إلا هذا . فاذا قال الشرقى (حقّ) وقال الانجليزى (منفعتى) بطلت كل الأدلة ، ورأى الشرقى أنه مع الانجليزى كالذى يحاول أن يقنع الذئب بقانون الفضيلة والرحمة

وقد عرفنا أن فى السياسة عجائب ، منها ما يشبه أن يلق انسانٌ انسانا فيقول له : ياسيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفعة . . . . وفى السياسة مواعيد عجيبة : منها ما يشبه غرس شجرة للفقراء والمساكين والتوكيد لهم بالإيمان أنها ستثمر رُغفاناً مخبوزة . . . . ثم بعد ذلك تطعَّم فتثمر الرغفان المخبوزة حشوُها اللحمُ والإدام

وفى السياسة محاربة المساجد بالمراقص ، ومحاربة الزوجات بالمومسات ، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشباب أن أماكن اللهو فى كل معانيها ليست إلا غدرا بالوطن فى كل معانيه ! ولو عرف الشباب أن محاربة اللهو هى أول المعركة السياسية الفاصلة ! ولو أدرك الشاب أن أول حق الوطن عليه أن يحمل فى نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه ! ولو رجع الدين الاسلامى كما هو فى طبيعته آلةً حربية تصنع من الشباب رجال القوة ! ولو علم الشباب أن روح هذا الدين ليست : اعتقدْ ولا تعتقد ، ولكن افعلْ ولا تفعل ! ولو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائل عملية لامتلاء النفس بمعانى التقديس ! ولو فهم الشباب أن ليس فى الكون إلا هذه المعانى تجعل النفس فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه ! ولو بحث الشباب النفس الانجليزية القوية ليعرف بالبرهان أنها نصفُ مسلمة فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . . .

***

وكان المترجم ينقل اليهم كلامى فما بلغت الى حيث بلغت حتى شدّ الضابط على يدى وهزّها ؛ فنظرت فاذا أنا قد كنت نائما بعد سهرة طويلة فى ذلك المسرح ، وإذا يد المترجم نفسه هى التى تهزنى لأنتبه

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له ، كما مللت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٥ —

قالوا لى أمس فى البيت : « قم ركب لنا هذه الستائر ! »

فقلت : « ستائر ؟ ؟ ياحفيظ ! ! يا ناس ما هذا الحال المقلوب ؟ . . فى الشتاء نرفع الأستار ، وفى الصيف الحامى نضعها لنزيد الوقدة وليعظم البلاء ! ؟ أما إن هذا لعجيب ! »

قالوا : « بل هى تحجب الشمس التى بهت منها لون السجاجيد ... »

قلت : « كونوا منصفين .. السجاجيد قديمة ، وعسير أن نطلب من القديم البالى أن يكون له لون الجديد الطريف الزاهى .. خذوا مثلاً هذه الخادمة العجوز ... هل كان وجهها مغضناً هكذا فى صباها ؟ أوكان شعرها كما هو الآن أبيض ؟ وهل كانت عينها كعين الموتى — لا حياة فيها ولا معنى ولا تعبير ؟»

قالوا : « دع الخادمة فان ذنبها اليك معروف ... لو كانت شابة لأغضيت عن كل عيب »

فاعترضت على هذا الرأى السيء والاتهام القبيح لذوقى ، ولكنهم ردونى إلى موضوع الستائر الذى أردت أن أستطرد عنه إلى حديث آخر ، فقلت : « الأمر لله .. إنما ينبغى أن تجيئونى بالأدوات اللازمة كلها .. يعنى السلم والمسامير الصالحة لعمل فنى دقيق كهذا .. وهاتوا أيضاً قلماً (أى فأساً صغيرة) ، فما أستطيع أن أستعمل هذا المعول الضخم ، فانى كما تعلمون رجل رقيق مترف .. ثم لا بد من تمليس الحائط بعد دق المسامير فيه ، وإلا بدا للعين الفاحصة متضرساً غير مستو ... »

فلم يجيئونى بما كان من حقى أن أطالب به وأصر عليه ؛ وإنما جاءوا بمطرقة كبيرة أحتاج فى حملها إلى رجلين مِنى ، ووضعوا فى يدى مسامير كالتى كانت فى فلك نوح ... لا تصلح لهذا الزمن أبداً ... ولكنى كما لا يعرف القراء رجل تضحية — وما أكثر ما أتقبل بالصبر — ومن غير تعليق طويل — ما يمتحننى به الزمن الغادر . لذلك دعوت الله فى سرى أن يبيض وجهى ، فان سواده الحالى كاف جداً ؛ وشرعت أعمل ؛ ولكن هل تركونى أعمل كما ينبغى أن يفعلوا لأكسب رضاهم بعرق جبينى ؟ كلا ... فقد أحاطوا بالسلم وجعلوا يصدرون إلىّ أوامر غير معقولة . فقلت لنفسى : « إن جدالهم عبث ، فدعهم فى جهلهم واتركهم ولا تجبهم فانهم يحبون الكلام . وماذا على أن يثرثروا .. » ولم أجعل بالى اليهم ، ولم أرد عليهم ، ورجوت أن يشغلوا بالحديث والثرثرة عما عدا ذلك . ولكنهم لما يئسوا من إصغائى لهم جعلوا يهزون السلم لألتفت ، فحدث ما كان لا بد أن يحدث ، وما كان طفل صغير يستطيع أن يتوقعه ؛ ذلك أنى اضطربت وأنا على السلم ، وكنت أهم بدق مسمار ، فوقعت المطرقة على أصابعى لا على رأس المسمار كما كان ينبغى أن تفعل لو كان لها عقل ! فصرخت .. وهل أناحجر ؟ ؟ ثم ما أشعر إلا والسلم يهوى بى إلى الأرض ... وقد كانت أيديهم عليه ، وكان فى وسعهم أن يمنعوا سقوطى وسقوط السلم معى ، ولكنى دققت أصابعى فيجب أن يضحكوا ! ! نعم ضحكوا ، بل قهقهوا ، بدلاً من أن يأسفوا أو يقلقوا علىّ ، أو يحزنوا لما أصابنى فى سبيلهم ، فتركوا السلم يفعل بى ما يشاء ... وقد أسمعتهم رأيى الصريح فيهم وفى هذا الكفران لنعمتى ، والجحود لفضلى ، وفى تعريضى للمضرات ، وفى أنهم إذا حاق بى مكروه فى سبيلهم ضحكوا وسروا وفرحوا جدا .... ثم تركتهم ومضيت أظلع — فوق ظلعى — إلى النافذة ، وكنت أفرك أصابعى لأسويها وأرد اليها استدارتها فقد بججتها المطرقة ، ولألطف الألم أيضاً فانى لست بحجر كما أسلفت ، وإذا بذات الثوب الأرجوانى واقفة فى شرفتها تضحك كما يضحكون ! ! فنظرت اليها آسفاً وقلت — كما قال يوليوس قيصر حينما طعنه بروتس — : « وأنت أيضاً ؟ ؟ » ولولا أن وقع المطرقة على أصابعى لم يفقدنى حبى للحياة ولم يضعف إرادتها فى نفسى لتمثلت بقول القائل : « فياموت زر إن الحياة ذميمة » ولكن الحياة ليست ذميمة على الرغم من المسامير العتيقة والمطارق الطائشة التى لاعقل لها فى رأسها الناشف والأهل الجاحدين والحبيبة التى يسرها أن تفرم أصابعك وتلتوى ساقك ، بل هى جميلة — أعنى الحياة ومرضية على كل حال وحميدة كيفما كانت — بل أعنى الحبيبة أيضاً وإن كانت تسخطنى ولا ترضينى ، ولا أدرى مالذتها التى تستفيدها من هذه المكابدة ؟ ؟

والله إن النساء أمرهن عجيب !! هذه ذات الثوب الأرجواني تفتح النافذة وتنظر ثم توليني جنبها ، وما شبعت من وجهها ، ثم تدير لي ظهرها ثم تهز رأسها فينتشر شعرها الجميل ويعود كالشمسية المفتوحة ثم ينسدل على جانبي وجهها ثم ترمي إليّ نظرة سريعة جداً يغيب عني معناها من شدة السرعة — مضافاً اليها البعد — ثم تدخل وتختفي ! ! ماذا كسبت بالله من هذا ؟ ؟ . وما حيلتي إلا أن أهز رأسي أنا أيضاً وأقول لنفسي إن أصحاب العقول في راحة ! ولو كانت تسمعني لغضبت ، ولكنها بعيدة فأنا أقول ما أشاء وأنا آمن ! . .

ومكايدة أخرى . . ظهرت — لي — في الشرفة يوماً في ثوب أزرق لا أحبه ، وكنت لا بساً ثيابي ومتهيئاً للخروج فما أستطيع أن أقضي حياتي في شرفة — كما تفعل هي — وإذا بها تدخل ثم تعود في ثوب أبيض جميل من الحرير الأبيض له شقتان واحدة على الصدر والأخرى تحتها على سائر البدن إلى القدمين ، وعلى رأسها قبعة بيضاء كقلبها — مجازاً فما فتح لي قلبها إلى الآن — تثني حافتها على حاجبها الأيسر دلالاً . فقلت لنفسي : « إلى أين إن شاء الله ؟ ؟ وإنها لحادثة فما رأيتها قط تخرج ، بل هي بشرى تنعش الأمل . إذ ما دامت تخرج فلا موجب لليأس ، وإذا بها بعد قليل خارجة من باب البيت ، ولكن مع أهلها ! ! . فسبحان الله العظيم ! ! وهل كان لا بد من هؤلاء الأهل ؟ ما فائدتهم أو ما الضرورة اليهم على كل حال ؟ ؟ ثم إن الأهل لا داعي للحرص على الاتصال بهم وملازمتهم لأنهم في الحقيقة ثمرات المصادفة البحت والاتفاق المحض . الأخ مثلاً شيء يجيء مصادفة .. ولو كان أبي — ولست أتكلم عن نفسي وإنما أضرب مثلاً تأييداً لنظريتي ليس إلا — أقول لو كان أبي مات قبل أن يموت بأربع سنوات أو خمس — وهو قد مات على كل حال ، فما ضر أن يموت قبل ذلك ؟ — لما صار لي أخ ، ولكنه اتفق أن عمر أبي طال أكثر مما كان ينبغي — إذا اعتبرنا الذرية والاسراف الذي لم يدع لنا ميراثاً يستحق الذكر — فصار لي أخ كان من الممكن ألا يكون لو أن أبي كان عاقلاً مقتصداً — على الأقل في الأبناء — وقل مثل ذلك عن الأب والأم وأبناء العم وبنات الخال إلى آخر هذا البلاء الطويل فانهم جميعاً أقارب بالمصادفة ليس إلا . . . فلماذا يجب أن أحبهم وأراعي مزاجهم وأتحرى مرضاتهم ؟ ؟ ولا بأس بالحب فاني مستعد أن أحب الدنيا كلها ما دام هذا الحب لا يضايقني ولا يفرض علي أعباء لا أطيقها أو لا أستسهل حملها .. ولكن الملازمة وتوخي المرضاة هذا تكليف ثقيل جداً . هذه المسكينة مثلاً لا بد أن تخرج مع أخيها أو أبيها أو لا أدري من أيضاً من هؤلاء الذين هم أهلها بالصدفة . . . لماذا ؟ ؟ ماذا جنت ؟ ؟ ما ذنبها هي إذا كان هذا أو ذاك قد شاء أن يكون أخاها أو عمها أو أمها ؟ . . لماذا لا تخرج وحدها فيتيسر أن تشعر بأن لها وجوداً خاصاً مستقلاً عن وجود هؤلاء الآباء والأمهات والأخوة والأعمام والخالات الخ ؟ ؟ والحق أقول أني تحسرت عليها ولها ، فانها مسكينة ولا شك تحيا حياة مرهونة بحيوات أخرى على حين لكل من هؤلاء الآخرين حياته الخاصة المستقلة التي لا علاقة لها بحياة هذه الفتاة

وقد كانت تضحك وهي واقفة تنتظر الترام مع أقرباء الصدفة ومن حقها أن تضحك ، فقد نزلت الى الأرض وداست قشرتها الصلبة بقدميها الصغيرتين وركبت الترام — أو هي ستركبه بعد دقيقة — ورأت الناس عن قرب بعد أن كانت تراهم عن بعد كالأشباح ، وألفت نفسها سابحة في لجة الحياة التي لا يمكن أن تحسها أو تدركها وهي في شرفتها . . . نعم كانت في المريخ تحلم بدنيا لا تعرفها فهبطت اليها وصار الحلم حقيقة والظن يقينا . . . فلها أن تضحك وتسر

وأنا ؟ أنا أبدي لها المودة فتتلقاها بهذه الجفوة والنفور والتخفي والتدلل كأنما أسيء اليها بحبي لها ، وأجني عليها بميلي اليها ، أو كأنما من الشتم لها أني تركت مئات ومئات من الفتيات وآثرتها عليهن جميعاً ! ! فلو أني كنت أبدي لها الكره والاستخفاف والاشمئزاز أكانت تقابلني بشر من هذا ؟ ؟ كلا ! بل كانت حينئذ تتعمد أن تبدو لي وتتكلف أن يكون ظهورها في حفل من الزينة ، لأنه كان يشق عليها في تلك الحالة أن رجلا لم يصبُ اليها ، ولم يفتنه جمالها ، ولم يسب لبه حسنها ، وكان هذا الاحساس خليقاً أن يدفعها الى التحدي — غير أنه تحدٍ ينطوي على استجداء للاعجاب من الرجل . وأنا أقول الاستجداء وأعني ما أقول بلا نقص . ذلك أن الجمال هو السلاح الوحيد الذي وُهبَتْهُ المرأة ، وليس لها في كفاحها في الحياة سلاح غيره ، فاذا فقدته فحكمها هو حكم كل مناضل ليس له سلاح ، وصار أعزل لا يملك كرا ولا فرا ولا مصاولة ولا محاورة ولا مداورة . وماذا يملك الأعزل أمام الشاكي إلا أن يذعن لقضاء

الله فيه ولتحكم القوة المسلح ؟ ؟ ولا فرق بين أن تفقد السلاح الذى تصول به وتجول ، وبين أن يثبت لك أنه قد صار لا فعل له فان عمل السلاح ومزيته أن يحدث أثره لا أن يكون في يدك والسلام . فاذا لم يكن له أثر كأن يكون قد فله شيء ، أو لاقى ما يثنيه أو يرده أو ما يصبر على وقعه ولا يتضعضع أمامه ، فهو وعدمه سيان ؟ كذلك المرأة — إذا فقد سلاحُها قيمتَه فلم يعد جمالها يحدث أثره المطلوب فى نفس الرجل فانها تكون فيما تحس حيال هـذا الرجل عزلاء لا حول لها ولا طول فلا يسعها إلا أن تخضع وتذعن وتروح تستجدى العطف وتلتمس الرضى ، وتتوسل اليـه باللين والمصانعة والتحبب والاغراء بعرض كل ما عندها من المفاتن . وكأنى بذات الثوب الأرجوانى قد خيل اليها أنها قد ضمنت حبي واستوثقت منه ، فهى لا تباليني لأنها فى ظنها منى على يقـين ، وأولى بها أن تعنى بغزو قلب غير قلبى — قلب آخر لا يزال مستعصيا عليها نابيا فى يديها — أما أنا فقد علق جناحى بالشرك فكيف الفكاك وأين المهرب ؟ وهـذا ظن كل امرأة معشوقة من الرجل الذى تعرف أنه يحبها وتأنس منه الصـبر على دلالها ، وليس يصرفها عن ذلك إلا أن تساورها الشكوك ، وتدور فى نفسها الوساوس ، ويحك فى صدرها الخوف من ملل الرجل وضجره من هـذا العبث . ولو كانت تعرفنى لخافتنى فما أنا ممن يصبرون على هذا اللعب . وإنى لأحبها — أو هـكذا يخيل إلىّ — ولـكنى فيما أظن أحب نفسى أيضا . وحبى لها هو بعض حبى لنفسى ، وليس الأمر على العكس ، وحب الرجل للمرأة معناه أنه يريدها خالصة لنفسه ، لينعم بهـا وحده ، ويستأثر بالمتعة المستفادة من جمالها . وليس معناه أنه يريد أن يعذب نفسه وينقص عيشه ويسّود وجه الحياة فى عينيه . أما حب المرأة للرجل فمعناه أنها رأته — بغريزتها لا بعقلها فانها تنقاد لغريزتها ولا تفكر بعقلها — أحق رجل بامتـلاك زمامها والسيطرة عليها وأكلها وهضمها . فالرجل يحب نفسه حين يحب المرأة أما المرأة فانها تطلب الرق وتسمى للتضحية الكبرى حين تحب الرجل . فهو لهذا أنانى فى حبه ، وهى لهذا مضحيـة فى حبها . فليس عجيباً أن تحتمل هى المكاره فى سبيل الحب لأن حبها تضحية كبرى فأولى أن تصبر على التضحيات الصغرى ، بل العجيب ألا تصبر ولا تحتمل . أما الرجل فهو كما قلت أنانىٌّ فلا صبر له على تضحية ولا احتمال منه للعذاب إلا وهو كاره أو عاجز عن الفوز بالراحة ، لأن طبيعة حبه لا تبيح له أن يفهم هذه التضحية ولا تجعله مستعداً لها . ومن هنا كانت المرأة أوفى وكان الرجل أغدر بالمعنى الشائع لا الحقيقى ، فان الوفاء من الرجل افـلاس نفسى وخيانة لطبيعته التى فطر عليها . وهذا هو الأصل ولذلك رأينا الرجل فى تاريخ الانسانية يتخذ المرأة والمرأتين والثلاث والأربع وتكون له الجوارى فضلا عن الزوجات أو من هن فى حكمهن ، ولم تر المرأة تتخذ من الرجال اثنين أو ثلاثة أو أربعاً ، إلا أن تفعل ذلك سراً وخفيةً ولعلةٍ . ولـكن الرجل لم يكن يعمل هذا سراً بل جهراً ، وكان يقيمهن فى بيت واحـد . وكانت المرأة ترضى وتذعن وتسمى سعيها لتكون هى الأثيرة لا الوحيدة . وكان الرجل لا يكف عن الاشتهاء والتطلع الى غير الموجودات ، والتبرم بالموجودات ، وهذا هو قضاء الطبيعة وحكم الفطرة فى الرجل والمرأة . فمن كان يشق عليه أن يقرأ هذا فليتـدبر تاريخ الانسانيـة قبل أن يفتح فمه ، وليحاول أن يعلل هذا التاريخ على وجه مقبول معقول قبل أن يعترض . ثم فليتأمل حاضر الانسان وليسأل نفسه عنه أتراه يختلف عن المـاضى إلا فى المظهر دون المخبر والجوهر ؟ ؟

فالوفاء — فيما يتعلق بالرجل — أكذوبة ومنافاة للطبيعة ، ولـكنه فيما يتعلق بالمرأة صدق واخلاص للطبيعة ؛ ومن هنا أن المرأة لا تزال تتهم الرجل بالغدر والتحول والتقلب وقلة الثبات . وهذا هو تفسير الغيرة الشـديدة من جانب المرأة ، وهى غيرة لا تقاس اليها غيرة الرجل مهما عظمت ، لأن غيرة الرجل على امرأته هى كغيرته على كل ما يملك ؛ فاذا أمن أن يضيع ملكه لم يبال ما دون ذلك مبالاة تذكر ؛ فغيرته فى الـكليات لا فى الجزئيات والتوافه ، ولـكن غيرة المرأة مرجعها إلى ادراكها — بغريزتها الذكية التى تهديها فى حياتها — إن الرجل لا يستطيع الصبر على الوفاء ، ولا يملك إلا أن يتحول وينقلب فى حبه ، وإلا أن يصرف قلبه من هنا إلى هنا ، فـكل حركة منه أو لفتة تذرُّ منه عندها بوشك هـذا التحول ، وفقدان ما كان لها عنده من مقام ومنزلة وايثار ، وعودتها واحدة من مئات الآلاف اللواتى لا يباليهن ولا يحفلهن ولا يحسهن أو يفطن إلى وجودهن ، فهى غيرة على الوجود وكل ما ينطوى عليه من الحقوق والمزايا ، ولذلك لا تنفك مشبوبة مضطرمة

ومن حق ذات الثوب الأرجوانى أن تغار وتقلق ، ويجب

أن أكون منصفاً ، فانى أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها ، وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بينى وبينها هى من البعد

والحق أن جارتها جميلة فاتنة ، ولست أحبها — على الأقل إلى الآن — ولكنى لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنتين معاً ، فان لكل منهما مزيتها وخصائص حسنها وتعبيرها الذى لا يشبه تعبير الأخرى ؛ والسمراء ألين وأسلس فى العنان على ما يبدو لى . نعم إن ذات الثوب الأرجوانى أسلم فطرة وأنقى وأخلص سريرة وأبسط قلباً وأبرأ من العبث ، ولكن تلك شيطانة ملمونة وعفريتة من الجن تجعل الحياة كلها حركة دائمة ، وما قيمة الحياة الراكدة ؟ ؟ على أنى كما قلت لم أحبها بعد ، وإن كنت أعجب بحيويتها الزاخرة . وقد أحبهما معاً ، أو تستأثر بى التى هى أقدر ما ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصراع الحاسم
بين الطغيان والديموقراطية
بقلم باحث دبلوماسى كبير

جازت الديموقراطية المعاصرة مرحلتين حاسمتين فى تاريخها : ففى غداة الهدنة التى اختتمت بها الحرب الكبرى استقبلت الديموقراطية طوراً جديداً من القوة والظفر ؛ وكانت الحرب الكبرى من بعض الوجوه صراعاً بين الطغيان والديموقراطية ؛ ففى معسكر الطغيان تجتمع الأسر القديمة الطاغية — آل هبسبرج وآل هوهنزلرن — والعسكرية البروسية تحركها أطماع مضطرمة فى السيادة الواسعة ؛ وفى المعسكر الخصيم تجتمع الأمتان العريقتان فى الديموقراطية فرنسا وبريطانيا ؛ وإذن فقد كانت هزيمة الدول الوسطى فى الحرب الكبرى هزيمة للطغيان والملوكية المطلقة ؛ وكان ظفر بريطانيا وفرنسا من بعض الوجوه ظفراً للديموقراطية والنظم الشعبية ؛ وظهرت نتيجة هذا الظفر واضحة فى قيام عدة من الجمهوريات الفتية فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى دول البلطيق الصغرى ؛ فهذه مرحلة ظفر للديموقراطية المعاصرة

ونعمت الديموقراطية بظفرها بضعة أعوام ، ولكنها انحدرت إلى معترك من الشقاق الخطر ، وانقسمت إلى شيع متخاصمة ؛ وبدلاً من أن تجتمع فى معسكر موحد ، أخذت فى نضال عنيف مستمر فيما بينها باسم المبادئ والصيغ المختلفة ما بين اشتراكية وديموقراطية متطرفة ومعتدلة ، حتى دب الفشل إلى صفوفها ؛ وكانت أول نتيجة خطرة لهذا الشقاق قيام الفاشستية فى ايطاليا وسحق الديموقراطية فيها ؛ ولم تلبث قوى الطغيان أن ظفرت تباعا فى بولونيا حيث تقوم حكومات مطلقة تستتر وراء الجمهورية ، ثم فى ألمانيا حيث قامت النازية أو الهتلرية ونظمت أعظم طغيان عرفه التاريخ الحديث ، ثم فى النمسا حيث طغت الأحزاب الفاشستية ؛ وأما فى روسيا ، فان النظام الذى استحدثه البلاشفة للجمهورية الجديدة لم يكن سوى طغيان شنيع يستتر باسم سيادة الطبقات العاملة ؛ كذلك لم تلبث الجمهورية التركية الناشئة أن تحولت إلى طغيان عسكرى مطلق يستتر تحت نظام جمهورى صورى ؛ فهذه مرحلة انحلال للديموقراطية المعاصرة

والآن تبدو فى الأفق ظاهرة جديدة ؛ ولقد ظفرت الديموقراطية فى اسبانيا منذ أعوام قلائل ظفراً مبيناً ، فسحقت الملوكية الطاغية القديمة ، وأقامت حكم الجمهورية والنظم الدستورية ، ولكن هذا النصر كان محلياً ، ولم تفد منه الديموقراطية الأوربية قوة جديدة ، ولكنا نشهد من جهة أخرى وثبة جديدة للديموقراطية الفرنسية ، فقد أسفرت الانتخابات الفرنسية الأخيرة عن فوز عظيم لأحزاب اليسار أنصار الديموقراطية المتطرفة والحريات الدستورية الواسعة ، وهى تتربع الآن فى دست الحكم ؛ وأسفرت الانتخابات البلجيكية فى نفس الوقت عن فوز الأحزاب الاشتراكية ؛ وفى روسيا السوفيتية يتحول الطغيان البلشفى منذ أعوام إلى نوع من النظام الدستورى العام تنمو فى ظله الحريات والحقوق الفردية باطراد ؛ ومنذ أشهر قلائل شهدنا تحالف الديموقراطية الفرنسية ، والديموقراطية السوفيتية فى ميثاق مشترك لمقاومة الخطر الألمانى المشترك . فهذه الظروف والأحداث كلها تنم فى نظرنا عن أن

الديموقراطية الأوربية تدخل فى طور جديد من أطوار نهضتها

ومما يلفت النظر فى عوامل هذه الوثبة الجديدة التى يلوح لنا أن الديموقراطية الأوربية تجيش بها ، هو أن فوز الأحزاب الاشتراكية الفرنسية فى الانتخابات الأخيرة هذا الفوز الشامل يرجع من وجوه كثيرة الى المسألة الحبشية التى أثارتها الفاشستية الايطالية واتخذتها ذريعة للتوسع الاستعمارى المسلح ؛ فقد كان غزو الفاشستية للحبشة وظفرها بالاستيلاء عليها ممزقة بذلك كل العهود والمواثيق التى ارتبطت بهـا فى العهد القريب ، متحدية أوربا وعصبــة الأمم والعالم كله ، مظهراً قوياً من مظاهر ظفر الطغيان المنظم ونفثة خطرة من نفثاته تنذر العالم بأخطر العواقب ، وكان موقف حكومة لاقال الفرنسية وتقلبها ونفاقها إزاء المسألة الحبشية ، وما قامت به من المعاونات السرية لحكومة رومة ، أكبر عامل فى تتويج الاعتداء الفاشستى بهذا الظفر الذى تزهو به الفاشستية اليوم وتتخذ منه نذيراً لأوربا ، ؛ فلما ردت السياسة البريطانية على موقف فرنسا فى المسألة الحبشية ، بموقفها فى مسألة الرين وتخليها عن فرنسا ، أدرك الرأى العام الفرنسى أن فرنسا تخاطر بفقد صداقة انكلترا ، فلم ير بدا من التحول فى الانتخابات الأخيرة الى ناحية اليسار لتقوم حكومة تعمل بالتفاهم مع الديموقراطية الانكليزية ، وتتعاون معها على درء خطر الطغيان الفاشستى والطغيان الهتلرى

***

ومن الخطأ أن تعتبر هذه الحركات الطاغيــة الخطرة التى تضطرم بشهوة الاعتداء والتوسع حركات محلية لا تعنى سوى الأمم التى تقوم فيها . فالفاشستية مثلاً تزعم لنفسها صفة عامة ، وتدعى أنها أمثل النظم الحديثة للدولة وتدعيم القومية ، وضمان رفاهة الشعب ؛ ويزعم طغاة ألمـانيا الجدد (هتلر وشيعته) أنهم رسل المثل الأعلى للدولة الكاملة ، والعظمة القومية ، ورفعة الجنس ، وأن نظرية الحريات الدستورية والحقوق العامة هى نظرية خطرة على كيان الأمم ، ويجب أن تكون جميع الحقوق والسلطات متمركزة فى الدولة ، والدولة فى نظرهم هى الحزب النازى ، ويزعم بعض دعاتهم أن هـذا النظام الغاشم سيعيش قروناً . ولقد كان لهذه الحركات والمزاعم بعض الأثر ، فظهرت فى انكلترا حركة فاشستية صغيرة ؛ واشتـد ساعد الجميات الرجعية فى فرنسا ، وساعدت على ذلك ظروف سيئة ظهرت فيها النظم الجمهورية بمظهر النظم الفاسدة المفككة ، وعاونت بعض الفضائح الخطيرة مثل فضيحة ستافسكى وغيرها على الاعتقاد بانحلال هذه النظم ووجوب تعديلها ، بل قامت بعض جمعيات تدعو الى اقامة الدكتاتورية إنقاذاً لفرنسا من هـذا الفساد الدستورى الخطر ؛ وظهرت فى دول أخرى مثل رومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نزعة الى الاقتباس من الفاشستية والنازية ؛ ومن ثم فى وسعنا أن نقارن مبادىء الفاشستية والنازية ، من بعض الوجوه بمبادىء الثورة الفرنسية التى تعدت حدود فرنسا واجتمعت حكومات أوربا المطلقة على مقاومتها

والآن نرى فى أوربا معسكرين عظيمين يتأهب كل منهما لمكافحة الآخر ؛ يتألف أحدهما من إنكلترا وفرنســا وبلجيكا وروسيا ؛ ويتألف الثانى من المانيا وايطاليا ؛ وينحاز لـكل منهما بعض الدول الصغيرة ؛ فاذا تأملنا فى هذا التكوين من الناحية الدستورية ألفينا الديموقراطية ممثلة فى الطريق الأول ، والنظم الطاغية ـ الفاشستية والنازية ـ ممثلة فى الطريق الآخر ؛ وقد رأينا أن الحرب الكبرى قامت على مثل هذا التقسيم فى القوى المتحاربة ؛ وأن الدائرة قد دارت على الحكومات المطلقة وعقد النصر للدول الديموقراطية ؛ وإذا تأملنا تاريخ أوربا خلال القرن التاسع عشر ، لمحنا أثر هذا النضال الدستورى فى معظم الحروب والمعارك التى دارت رحاها فيه ؛ فقد عقدت المعاهدة المقدسة فى سنة ١٨١٥ بين قيصر روسيا ، وإمبراطور النمسا ، وملك بروسيا ، أو بعبارة أخرى بين الأسر الثلاث التى تمثل الحكم المطلق وتتذرع بالحق الالـهى ، وهم آل رومانوف ، وآل هبسبرج ، وآل هوهنزلرن ، وغرضها الظـاهر توثيق عرى الأخوة المسيحية والتحالف بين الدول الثلاث ، وغرضها الحقيقى مقاومة الحركات الشعبية والدستورية ؛ وقد كانت أوربا طوال هذه القرن كله مسرحاً لـكثير من هذه الحركات التى ترمى إلى الحد من طغيان الحكم المطلق ومساوئه ، وتنمية الحقوق العامة للفرد سواء فى الدولة أو المجتمع

إن مجرى السياسة الدولية الحالية يفصح بذاته عن مظاهر

تلك المعركة الكبرى التي يسير هذان المعسكران إلى خوضها؛ فانكلترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبة الأمم، واقالتها من عثرتها السحيقة فى المسألة الحبشية، ومن ورائهما السوفييت ودول أوربا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذى أريد أن يكون دستور عصبة الأمم ضماناً لتحقيقه، قد صار بعد ظفر الفاشستية المعتدية بالاستيلاء على الحبشة — وهى من أعضاء العصبة — عقيماً لا أثر له من الوجهة الدولية؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بعد انهيار هذا الضمان المشترك الذى كانت تعتمد عليه. ونرى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبة الأمم، ولا تدخران وسعاً فى مناوأتهما وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وحريات الأمم وحقوقها إذا تحقق بعمل دولى قوى من جانب الدول الديموقراطية، فانه يقف سداً فى وجه أطماعهما فى التوسع والاستعمار، ويؤدى إلى ضعف النظم الداخلية التى تغذى هذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرياتها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا فى نواحى السياسة الدولية ألفينا مظاهر المعركة الحاسمة التى يوشك أن تخوضها الديموقراطية. والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنها بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب، ولأن الدول التى تمثلها، هى فريق الدولة الراضية المستأثرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الغنية؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت، وعندئذ تقع معركة الفصل فى مصاير أوربا الجغرافية والدستورية، وتقع معركة الفصل فى مصاير المدنية، فاما أن تفوز الديموقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية، وإما أن تفوز مبادىء القوة الهمجية التى تنادى بها الفاشستية والهتلرية، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوربا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديموقراطية التى صمدت لهذه القوى الهمجية منذ القرن التاسع عشر تستطيع بلا مراء أن تدافع عن نفسها ومن ورائها الرأى المستنير فى العالم كله

***

هنرى روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

إلى المحاماة، فى شخص المحامى الأول،
والنقيب الأول، ابراهيم الهلباوى بك

فى ١٣ مايو الماضى مات هنرى روبير نقيب المحامين فى باريس وعضو الأكاديمية، ووقف لتأبينه النقيب «دى مورو جيافرى» فقال: «إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل رفع من شأنها منذ عهد بربيه». وهى عبارة تعطيك أبلغ فكرة عن مكانة هنرى روبير فى التاريخ؛ فلعل «بربيه» أكبر رجال المحاماة فى التاريخ الفرنسى؛ هو الذى حمل لواء الدفاع عن «لامنيه»، وعن «شاتو بريان» ضد لويس فيليب عند ما هتف قائلاً للدوقة «دى برّى»: سيدتى، إن ابنك هو الملك. وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك؛ ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عند ما طلب إعدامه فأنقذه دفاع «بربيه» ليصير بعد سنين جلالة الامبراطور، وهو الذى كان يدافع عن المتهم فى إحدى جنايات القتل فأخذ محامى المدعى المدنى «النقيب كرسّون» يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذى سيسمعونه من فخر التاريخ القضائى فى فرنسا. فاذا جاء هنرى روبير بعد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه شن دستايج أو ليون ديفال أو جول فافر أو روس أو «ألو» أو محامى مدام لافارج الذى كان يقول عن نفسه: (أنا الدفاع» صديق الأمبراطور الشخصى أعنى «لاشو»؛ ثم باربو؛ ثم لابورى، لابورى الهائل، الذى نفذ رصاص الحقد إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص؛ لابورى الذى قال عنه هنرى روبير وهو يلقى الكلام فى تأبينه: «قوة من قوى الطبيعة ومارد فى موقف الدفاع»؛ ثم دى بوى أستاذ بوانكاريه؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه، محامى جونكور وجائزة جونكور ووصية جونكور؛ والرئيس فيفيانى أو البلاغة كما كان يسميه بنو العصر؛ وشنى «أفضلنا» كما كان يقول هنرى روبير؛ ووالدك روسو؛ والنقيب

«بوتو» حفيد النقيبين أو قل وزيرى الحقانية بوتو وباروش .. كل أولئك لا براهم جيافرى قد أعلوا من شأن المحاماة مثلما أعلى من شأنها هنرى روبير ...

وفى الحق أن هنرى روبير قد بلغ ذلك الأوج لظروف خاصة ؛ فهو قد ظل ربع قرن كامل محامى فرنسا الأول ، حتى ليكاد المرء يخاله قد وصف نفسه عندما وصف فيكتور هوجو بأنه استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله ؛ وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومة محامين . وكان هنرى روبير « نقيب الحرب » كما كانوا يقولون إذ ظل نقيباً لمدة أربع سنوات دون أن يعاد الانتخاب ؛ فالمحامون كانوا جميعاً فى الخنادق ، ولم يكن لذلك بد من تأجيل الانتخابات ؛ وبذلك اقترن اسمه بالنظام القضائى طيلة أيام المحنة . وكان يلقى فى تأبين المحامين الذين تفقدهم فرنسا كلمات خالدة تخلب الألباب . وكان يمثل المحاماة فى كل معترك ، ويحمل رداءها فى كل حفل . وهكذا حمل اسمها ولواءها عند الكافة . فلما خمد لهيب جهنم لم تخب تلك الشهوة اللامعة فارتفعت بصاحبها من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون فى سنة ١٩٢٣ خلفاً لريبو . وكانت آخر كلمة له فى المجمع تأبين الفقيد الجليل جاك باشيل ؛ حتى إذا تفرغ للتأليف من سنة ١٩٢٨ أخذ يقرؤه عالم الأدباء بعد أن كان يقرأ عنه ، وبعد أن كان محامياً عن الأفراد أصبح محامياً عن المحاماة ؛ وبعد أن كان اسمه يذكر بمناسبات أصبح اسمه يدوى فى المسامع باستمرار

وظل هنرى روبير طول أيامه عزوفاً عن السياسة معتزاً بالمحاماة ، فلم يغب باسمه ولا بجسمه عن قصر بوربون

الى تلك الملابسات التى أحاطت بالرجل كان الرجل نفسه كنزاً زاخراً حافلاً بالكفايات، والكفايات فى أمة كفرنسا وفى وسط كالمحاماة يندر أن تضيع

هذه الشخصية الخالدة يجب أن ندرسها فى مصر ، ولوفى عجالة وبإيجاز . ولعلى بهذا البحث أشق الطريق للأدب المرجو الذى أنادى به من عشر سنين : أدب المحاماة

***

ولد هنرى روبير فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٦٣ ، وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم فى سلك المحامين . وفى يوليو سنة ١٨٨٧ انتخب سكرتيراً لمؤتمر المحامين وانتخب معه اثنان آخران يكفى أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتضامن الماضى مع المستقبل ، فأولهما الأستاذ واتين الذى يتولى اليوم توزيع العدالة وشرع الأحكام فى كرسيه فى رياسة دائرة محكمة النقض ؛ وأما ثانيهما فانه ڤرنان لابورى : وما أدراك ما لابورى ؟ لسان الدفاع عن ڤايان الذى ألقى القنبلة الأولى على مجلس النواب ، ذلك الدفاع الذى لا نستطيع بعد قراءته إلا أن نتساءل مع هنرى روبير : « كيف لم يبرئوا المتهم ؟ » ولسان الدفاع عن أميل زولا ؛ الدفاع الذى أفقده أمواله وعملاءه وأكسبه الفخار والشرف : والذى نقل الى الأجيال أروع كلمة قالها محام فى الذب عن حياض المحاماة ؛ فعند ما هوت من فم النائب العام — وهو جالس على كرسيه بجوار المحكمة فى أعلى القاعة — كلمة جارحة بالنسبة للابورى صرخ صرخته الداوية فى وجه النائب : «إن الشتائم التى تساقطها من كرسيك الرفيع لن تستطيع — مهما كان كرسيك عالياً — أن ترقى الى المنصة التى يترافع منها الدفاع »

ولم يكد هنرى روبير يستمرئ حلاوة ظفره فى الانتخاب حتى اختاره النقيب دربيه سكرتيراً له وولاه أعمال مكتبه فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٧

وقضى السكرتير الجديد بمكتب النقيب سنتين حتى قبض الله إليه النقيب فلم تبرح ذاكرته ذكراه حتى قضى هو الآخر ؛ فتراه يهدى إليه بعد أربعين عاماً كتابه « المحامى » ، فتراه يختصه بأروع الصفحات فى بعض مؤلفاته ؛ فلقد كان دربيه أباً يخلص الحب ، ولم يكن أستاذاً فحسب ؛ كان يفتح صدره لسكرتيره ، وكان يفتح أمامه أيضاً أبواب داره . وفى نوفمبر سنة ١٨٨٨ رحل النقيب والسكرتير للمرافعة فى قضية القتل التى قارفها تلميذ بول بورجيه وصديقه كامييج والتى أوحت لعميد الأكاديميه المتوفى (بورجيه) أروع مؤلفاته وهو كتاب « التلميذ » ، فلقد قتل كامييج عشيقته الفاضلة مدام جريل بعد أن تعاهدا على الانتحار فأصابها ثم أخطأ نفسه ؛ فترافع دربيه ومن ورائه هنرى روبير ففتح لنفسه طريق الخلود

وفى ذات ليلة انتقلت هيأة الدفاع كاملة ؛ على ضوء الشموع ، لا الى المحكمة ولكن الى المقهى ، ولا لتطلع على المستندات ولكن لتطلع على رقص « أولاد نايل » ، فهمس دربيه فى أذن سكرتيره : (يا صديق ما ذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا هنا ؟) فأجابه زعيم

الارتجال « هو بلا شك يحسدك يا سيدى النقيب ! »

وأخذ هنرى روبير يمشى قدماً فى عالم المحاماة ، وكانت الحياة رخية فى أعقاب حرب السبعين الى فاتحة القرن الحالى ، فلم يكن يخشى على الكفايات الممتازة من منافسة الجشع والخسة والأساليب الدنسة التى تخلقها ظروف الحياة العصيبة ، فتهيأت للمحامى الناشئ قضايا هائلة ظهر فيها هائلاً أيضاً ، فترافع عن جبريل بومبار فى سنة ١٨٩٠ ليستل رأسها من تحت المشنقة ، وعن واشيه المتهم بقتل أبيه ليظفر لدولمن معه ببراءة خالصة وفى سنة ١٨٩٨ ترافع عن الطبيب لايورت مرافعته الخالدة . وفى سنة ١٩٠٢ ترافع عن مدام همبير ضد الصيرفى قطاوى واختتمها بتلك الكلمة التى اختتم بها الأستاذ سابا حبشى مرافعته القيمة فى قضية نزاهة الحكم « ... وستثبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات » وفى سنة ١٩٠٤ ترافع عن المهندس بيير فى مقتل كاديو ، وفى سنة ١٩٠٨ فى مقتل ريمى الخ الخ . . وفى سنة ١٩٢٥ ترافع عن بوربووش وفى سنة ١٩٢٩ ترافع عن الجنرال ميشيل فنال له ما عجز عن نيله أستاذ الجيل « لاشو » فى محاكمة المارشال بازان عن موقفه فى حرب السبعين ، ثم عن الحسناء البولونية فالنتين أو متسكا ، ثم عن القسيس هيجى ، ويومئذ اختتم مرافعته أمام محكمة جنايات السين بما ختم به عمله القضائى الخالد أمام تلك المحكمة قائلاً : « . . أيها الأب . . صح معى وبأعلى صوتك : فلتحى فرنسا . »

***

فما هى إذن تلك الكفايات التى رفعت صاحبنا وصاحبها إلى تلك الذروة ؟ الجواب عندى يتلخص فى كلمة واحدة هى : أنه كان يفهم قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة ؛ وهذا هو الذى جعله بحق أحدث القدماء وأقدم المحدثين . وبعبارة واضحة هذا هو الذى جعله مترافعاً عظيما فى أواخر قرن البخار ، مترافعاً عظيما فى أوائل قرن اللاسلكى ؛ بل بعبارة أوضح هذا هو الذى جعله يكيف المرافعات « التقليدية » التى كانت آية البيان فى أعقاب الحرب الأولى ، أعنى حرب السبعين بما يستسيغه القضاة بعد الحرب الثانية فى سنة ١٩٢٠ : هؤلاء القضاة الذين يضعون الساعة أمام عيونهم فان لم يضعوها أمامهم تصوروها كائنة فى رؤوسهم . . . تدق باستمرار . . . . !

نحن الآن فى المحكمة ، وهذا هو النائب العام يترافع ؛ وذلك محام هادئ يكاد ينام ؛ لكنه نهض الآن ، رفيع القامة ، رفيع المقام ، يتكلم فى سرعة غريبة كأنه يخشى أن يُدفع ضده بفوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدث ؛ وها قد مضت خمس دقائق دون أن يظهر لك أنه محام كبير ، لكنه قد أوغل فى صميم الموضوع فوراً ، وحميت الوقدة واندلع لهيب النار ، فهو يضرب يميناً ويضرب شمالاً وبقسوة وبصوت محترم ، والحجج تنساق متدافعة مُعجلة إلى أسماع المحلفين فيعجبون لتقديم هذا المتهم البرىء ! وفى عشرين دقيقة أو ثلاثين ! ! يبدو لهم أن النائب المترافع كان يسىء استعمال وقتهم عدة ساعات فى مرافعاته ضد رجل طاهر كالطهر ، مظلوم كالمسيح

تلك كانت صورة هنرى روبير وهو يترافع كما حكى لنا سامعوه ومؤرخوه وكما يظهر لنا من كتاباته

حدثنا هنرى روبير عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فوجد محامياً يترافع ، فتساءل من الأستاذ ؟ فقيل له إنه الأستاذ « أنتل » قال : كيف هذا ؟ إنه يتحدث فى بساطة مجردة ! لا يمكن أن يكون هذا هو الاستاذ أنتل البعيد الصيت !

فاذا رجعت إلى كتاب الأستاذ الجداوى المسمى «مرافعات» وجدت أن الأستاذ الجداوى هو ذلك الرجل الذى دخل القاعة ، وأن المحامى الذى تساءل عنه وتلقى الجواب بدهشة وباعجاب لم يكن الأستاذ آنتل بالطبع ولكنه كان الأستاذ هنرى روبير !

وفى مقال بعث به إلى Candide فقرأه الأحياء فى ٢١ مايو الماضى بعد أن كان هو قد سقط من سجل الأحياء ! . . فى ذلك المقال المعنون : « فتحت الجلسة » محض هنرى روبير المحامين النصح أن يقرأوا مرافعات « والدك روسو » ليتعلموا فن « البساطة والسهولة والدقة » . وفى كتاب (المحامى) يهيب بالمحامى أن يتذكر أنه يقف أمام القضاء « ليقنع لا ليلمع » وأن القرن السادس عشر قد حمل الينا وديعة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هى أن تترافع « باختصار وبلباقة وباخلاص » ؛ وعلى ذلك تجد مؤلفاته كمرافعاته ؛ فهو يبدأ مرافعاته لينتهى منها بسرعة وحرارة ، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته ؛ وهذا كتاب قضايا التاريخ الكبرى يعرض للناس أفظع ما اجترح الضمير الانسانى من أوزار وحيل وخيانات ، وهذه مرافعته الفنية عن الدكتور لابورت ، كل تلك الاعمال يبسطها روبير فتروعك بسهولة عبارتها وسحر دلالتها

حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ .. !

ذلك لأنه كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض ؛ ومادام يفهمها فهو ـ بأسلوبه ـ قمين أن يُفهمها ؛ ومن المسلم به أن الذى لا يفهم لا يستطيع أن يُفْهِم ، وأن تبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها ، وأن الغموض فى العبارة هو غالباً أثر الغموض فى التفكير

ويمتاز هنرى روبير من رجال الدفاع فى العالم طرا بالسرعة المتناهية فى الالقاء ، وله من جراء هذه السرعة حادثة ذكرها لنا فى مقال (كانديد) ، إذ كان يترافع عن قاتل عشيقته فقال وهو يطير فى أجواء الكلام « . . . فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها فوراً . . » ولم ينتبه أحد سواه إلى ما فى هذا الكلام من استحالة لأن الجمهور والمحلفين كانوا يجرون معه إلى الغاية كالزورق الذى يحمله التيار

ولذلك الاسراع تجده ينتزع المتهم من براثن النائب العام بعد ١٧ دقيقة فقط كما شهدت المحامية أوديت سيمون أو « بعد عشرين دقيقة لا أكثر ولا أقل » كما تعهد هو للمحلفين وهو يستهل الدفاع فى قضية بوبوروش عندما قتل الرجل الذى أخبره أن امرأته تخونه . ومن الغريب أن يقولها للمحلفين بعد أن قال ساخراً « . . ساعتان كاملتان ، واتهامان متضافران ، من المدعى المدنى ومن النائب العام ! » ثم يختتم دفاعه وهو يناجيهم « . . . إننى أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا عدتم إلى مساكنكم فى المساء ألقيتم على زوجاتكم وبناتكم نظرات كلها اطمئنان » . وفى ٢٨ يونيوسنة ١٩١٣ كتب الأستاذ « ڤرنان بايان » ـ قبل أن يصبح نقيباً ، ومؤرخا لبوانكاريه ـ كتب فى الفيجارو دراسة لهنرى روبير نشرها فى كتابه Anthologie des Avocats وعلل هذه السرعة بأن الرجل يخشى أن يضيع أثر كلامه فى المحلفين ، فهو ينتهى منهم بسرعة ليتركهم تحت أثقال حججه وبراهينه . وعندى أن العلة فى ذلك كانت صفاء عقل هنرى روبير وقدرته على الارتجال ، ذلك الارتجال الذى قال هو عنه كما سيجىء بعد : إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة ، حتى كان يسمى نفسه « آلة كلام » ، فهو كان يبدأ لينتهى ؛ أفكار واضحة وعبارات حاضرة ؛ كان يفتتح المعركة لينتهى منها بأسرع ما يستطيع ؛ والنصر الحاسم هو غالباً النصر السريع . ثم ـ وهذه مسألة أساسية ـ كان هنرى روبير عدوا للتصويرات البيانية ولحشد الأمثال والسوابق ، فهو كان مقيداً دائماً بموضوعه ، لا يرسم الصور ، ولا يلقى الحكم ، ولا يتفيهق بالألفاظ ، ولا يتطلب الشهرة ، لأنها قد دانت من زمان ؛ فهو إذن يلقى الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق فى آثار الفيلق ، وكالانتصار فى أعقاب الانتصار ؛ وهو إذن كان يستغنى عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة لها قوة الاربعمائة ووضوح الدليل الفرد

كان هنرى روبير يرتجل كما قلنا ، لكنه يشرح ارتجاله حيث يقول « إننى لا أفكر فى الكلام حين ألقيه » ثم يقول « أنا لا أحضر مرافعاتى بالكتابة ؛ وإنما أترافع بينى وبين نفسى على انفراد وبلا صوت عال ؛ لا أتكلم ، وإنما تجرى العبارات فى مخيلتى وأنا أمشى أو وأنا فى عربتى ، وفى المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال « وهذه العبارة تشرح للقارئ حالة خاصة كان يشهدها سامعوه عند ما يفتتح الجلسة فى قضية خطيرة ، إذ كانت تبدو عليه علامات الانفعال . وقديماً كان « تورين العظيم » لا يدخل المعركة إلا وهو يرتعد ، فكان ينادى جسمه « ارتعد . . تزايل . . إنك لا تدرى إلى أين أَقْذِفُ بك . . . » وكان تورين أعظم القواد فى تاريخ فرنسا عند نابليون

أما خطة هنرى روبير فى مرافعاته فقد تعلمها على الرجل الذى كسب ستين معركة ؛ وهى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . فاذا شرع فى مرافعته اتجه فى شتى الجهات يبحث عن متهم غير موكله ليلقى عليه أفدح أثقال الاتهام ؛ فاذا لم يكن هناك مجرم آخر فلا شك أن هناك أباً لم يعلم ولده فهوى به — هو — الى أحضان الجريمة ؛ أو أن هناك تحريضاً أو استفزازاً وإلا فاستسلاماً صدر من المجنى عليه ؛ أو أن الهيئة الاجتماعية قد قصرت أو أساءت الى غير ذلك من أساليب الدفاع ، وإذا شئت فمن أساليب الاتهام . والذين سمعوا وهيب دوس يترافع فى قضية نزاهة الحكم أو فى مقتل السردار أو فى قضية الأطباء — بخاصة — يدركون مقدار ما يتساوى الرجلان فى تلك الخطة التى شرعها نابليون للناس ، أو نقلها عن هانيبال للأجيال اللاحقة ، عند ما كان يعلم بقيام حلف ضده فى وسط القارة أو فى شرقها أو فى غربها فلا ينتظر فى قصر التويلرى بل تجده مرتين تحت أسوار ڤينا ومرة أخرى فى قصر فردريك العظيم ليأخذ ساعته الدقاقة إلى سنت هيلين من بعد باريس ! . . . ومرة ثالثة تجده فى موسكو . . . أمام الحريق ، بل أمام اللانهاية ، بل أمام باب الفشل . . . . .

(البقية فى العدد القادم) عبد الحليم الجندى

شعراؤنا المنسيون

الأبيـــوَرْدى

المتوفى فى مثل هذا اليوم (٢٠ ربيع الأول) سنة ٥٥٧

بمناسبة مرور «٧٩٨ سنة» على وفاته

للأستاذ على الطنطاوى

مقدمة : بين المعرى والبارودى عصر أدبى مديد قد نسى اليوم أو كاد ، فمحى من برامج التعليم عندنا ، وحكم عليه جملة واحدة بأنه عصر انحطاط فى الأدب وجفاف فى القرائح ، وضعف فى الانشاء ، وقحط فى الرجال ، وانصرف عنه الناس — إلا الخاصة من أهل الأدب — وزهدوا فيه ، وارتضوا لأنفسهم الجهل به ، وانقطعت الصلة بينهم وبينه ، فلا تقرأ لأحد بحثا فيه ، ولا تحليلا لشاعر من شعرائه . ولا تسمع اسم رجل من رجاله يتردد على أطراف ألسنة الخطباء ، وأسلات أقلام الكتاب ، كما تردد اسم بشار والبحترى والمتنبي والمعرى ، فى حين أن هذا العصر الطويل قد أنجب شعراء إذا هم لم يضارعوا الفحولة السابقين ، فليسوا خالين من كل مزية ، ولا عاطلين من كل حلية . بل إن فيهم لشعراء فحولا ، زودوا الأدب العربى بزاد قيم ، وأورثونا أدبا جما ، وشعراً كثيرا من حقه أن يحفظ وينظم ، ويدرس ويحلل . لا سيا ونحن فى إبان نهضة أدبية شاملة ...

وقد أحببت أن أفتح هذا الباب فى «الرسالة» لأنها اليوم بمثابة الامام فى الأدب العربى ، ولأن فى يدها دفة السفينة فهى التى توجهها الوجهة الصالحة إن شاء الله . ولست أسوق هذه الكلمة على أنها دراسة كاملة لهذا الشاعر . ولكن على أنها كلمة موجزة عن نفسيته وشعره ، بمناسبة ذكرى وفاته ، عل هؤلاء الشعراء المنسيين يبعثون كما بعث ابن الرومى من قبل . فيقام للابيوردى بعد سنتين مهرجان كمهرجان المتنبي بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته ... (ع)

قال الأبيوردى :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى ... أعزّ وأحداث الزمان تهون

فبات يُرينى الخطب كيف اعتداؤه ... وبتّ أريه الصبر كيف يكون

والأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المعاوىّ الأموىّ العبشمىّ الذى يقول :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة أمراؤها

فلما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليـــل رخاؤها

وكان الينا فى السرور ابتسامها ... فصار علينا فى الهموم بكاؤها

وصرنا نلاقى النائبات بأوجه ... رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها

إذا ما هممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالى لم يدعنا حياؤها

***

هذه نفس الأبيوردى ، وهذا شعره

قال الشعر فأكثر ، وسار فيه على سنن من تقدمه وعاصره ، فمدح وهجا وتغزل ، واستنفد المدح أكثر شعره ، وعُنى بالصناعة البديعية ، وغاص على المعانى المبتكرة ، والتوليدات الدقيقة ؛ وكان شأنه فى ذلك شأن جمهرة الشعراء الداجين لم يأت فيه بجديد ، ولم تكن له ميزة فى شىء منه ، ولكن ميزته فى شىء وراء ذلك كله ، هو أن له شخصية قوية واضحة تشبه شخصية المتنبي فى كثير من نواحيها ، وإن هذه الشخصية تظهر فى شعره كله ، فى المدح وفى الهجاء وفى الغزل

وستفهم هذه الشخصية ، وترى مبلغ ظهورها فى شعره حين تعرف نسبه وأخلاقه ، وتقرأ ما سأعرض عليك من شعره

أما نسبه فقد علمت أنه يتصل بأبى سفيان بن حرب بن أمية ابن عبد شمس جد الخلفاء الأمويين ، الذين ملكوا الدنيا ، وفتحوا المشرق والمغرب ؛ وقد كان الشاعر معتزاً بهذا النسب لا ينساه ولا يكتمه ، ولا يحجم عن أن يواجه به الخلفاء من بنى العباس ، وأن يفاخرهم به فى وجودهم !

كتب مرّة إلى أمير المؤمنين المستظهر بالله رقعة على رأسها الخادم المعاوىّ ، فغضب الخليفة وأخذ الرقعة فكشط الميم من المعاوىّ وردّها اليه ...

وكان مرّة يمدح الخليفة المقتدى العباسى ، ففخر أمامه بنسبه الأموىّ ، ووازاه بنسب الخليفة ، ولم يزد على أن جعل جدّ الخليفة العباسَ «ساقى الحجيج» ندا لجده وقريعاً ، قال :

وقد ولدتنى عصبة ضمّ جدّهم ... وجدّ بنى ساقى الحجيج عروق

وإنى لأبواب الخلائف قارع ... بهم ولساحات الملوك طروق

ولم يكن يمتنع من أن يفخر بأجداده الأمويين ، ويملأ الدنيا ثناء عليهم ، ويفضلهم على الناس كلهم ، على مسمع من العباسيين أرباب السلطان وأولياء الأمر ، وأن يعرض فى فخره بالدولة العباسية وزوالها ، قال :

أنا ابن الأكرمين أباً وجداً ... وهم خير الورى عماً وخالا

أشدّهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهم إذا عقدوا حبالا

وأرجحهم لدى الغمزات عوداً إذا الخفرات خلين الحجالا

(إلى أن قال) :

وهم فتحوا البــلاد بباترات كأن على أغرتها نمــالا
ولولاهم لــا درّت بفىْ ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد عـــلم القبائل أن قومى أعزهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولا وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالى وأية دولة أمنت زوالا ؟

أما أخلاقه فقد كانت أخلاق الصيّد من الملوك ، لا أخلاق المداح من الشعراء ، فقد ذكروا أنه كان عالى الهمة ، عزيز النفس ، متكبراً تياهاً ، ذا بأو وصلف وعجب ، وكان يتخذ العبيد والغلمان ، ويأمر من يمشى بين يديه بالسيف فعل الملوك ، وكانت له آمال سياسية ، كان يرجو أن يبلغها من طريق المرتبة والولاية ، فطلبها وألح فى طلبها ؛ فلما أيس منها عزى نفسه بأنه سيطلبها بالسيف ، فهو يشبه فى هذا المعنى المتنبى شاعر العرب الأكبر ؛ يدل على آماله السياسية وطموحه إلى الملك شعره الذى سيمر بك عما قريب ، ودعاؤه عقب كل صلاة : « اللهم ملكنى مشارق الأرض ومغاربها » ، وتيهه على ممدوحيه من الملوك والوزراء ، وفخره بنفسه بين أيديهم

أما الشعر فكان ينظمه ترويحاً عن نفسه ، وترجمة عن أدبه ، ويمدح به من يمدح للأدب لا للنشب ، وللوفاء لا للعطاء :

ولم أنظم الشـــعر عجباً به ولم أمتدح أحـداً من أرب
ولا هزنى طمع للقريـ ض ولكنه ترجمان الأدب

***

إنى بمدحك مغرى غير ملتفت إلى ندى خضل الأنواء مطلوب

وكان يترفع عن أن يستجدى بالشعر ، وأن يعد من الشعراء السؤّال . ويرى نفسه نداً لممدوحيه . فهو ينظم لهم هذه القصائد المعجزة . يبتغى بها ودهم وإخاءهم لا نوالهم وعطاءهم :

ولولاك لم تخطر ببالى قصائد هوابط فى غور طوالع من نجد
لحقت بها شأو المجيدين قبلها وهيهات أن يؤتى بأمثالها بعدى
فهن عذارى مهرها الود لا النـدى وما كل من يعزى الى الشعر يستجدى

ولم يكن يسلك سبيل شـعراء المدح فى الكذب والغلو والمبالغة . ولكن سبيله وصف ما يرى من صفات ممدوحيه وخلالهم وصفاً صادقاً ، لا كذب فيه ولا اغراق :

وصدق قولى فيك أفعالك التى أبت لقريضى أن أوشحه كذباً

***

لا زلت تلقح آمالاً وتنتجها مواهباً يمتريها كل محروب
وتودع الدهر من شعر أحبره مدائحاً لم توشح بالأكاذيب

وكان عارفاً بقيمة شعره ، مؤمناً بعلو منزلته وجلالة قدره ، فهو يوجه إليه أنظار ممدوحيه ويدل به عليهم ، ويمن على من يمدحهم بأن ملوك الأرض يتمنون أن يمدحوا به ، ولكنه لا يتنازل الى مدحهم ، ولا يعرج عليهم ، ولا يلتفت إليهم :

قليل الى الرى الذليل التفاته وان كثرت للواردين المناهل

***

فدونك مما ينظم الفكر شردا سلبن حصى المرجان كل نظام
تسير بشكر غائر الذكر منجد يناجى لسانَىْ معرق وشآمى
ويهوى ملوك الأرض أن يمدحوا بها وما كل سمع يرتضـــيه كلامى

***

وكم ماجد يبغى ثناء أصوغه ولكننى عن مدح غيرك أزورُّ

ويودع سيداً كبيراً فلا يجد ما يأسف عليه عند وداعه الا هذا الشعر الذى يضيق به الحساد ، و (تكبو دونه الشعراء) وتنشده الأيام ، أن يضيع بعد رحيله ولا يبقى له أهل يخاطبون به

رحلت فالمجد لم ترقأ مدامعه ولم ترق علينا المزن أكبادا
وضاع شعر يضيق الحاسدون به ذرعاً وتوسعه الأيام انشادا
فلم أهب بالقوافى بعـد بينكم ولا امتدحت وقد جربت أجوادا

***

وإذا أنت سألت الشاعر عن منزلته فى الشعر لما تردد فى القول بأنه فاق الشعراء وبذهم ؛ فاذا عجبت منـه كيف يعجز الشعراء ويبذهم وهو واحد منهم ، أجابك جواب المطمئن المؤمن بما يقول : المعتد بنفسه قائلاً :

فقت الأعاريب فى شعر فأنت به كأنه لؤلؤ فى السلك منضود
ان كان يعجزهم قولى ويجمعنا أصل فقد تلد الجمر المناقيد

فمن كان له هذا المجد التليد ، ينم عنه هذا النطق المبين :

ينم بمجدى حين أفخر منطق ويعرب عن عتق المذاكى صهيلها

ومن كان سليل الملوك ، وشاعر العصر ، وذا المجدين : المجد

الموروث وهو هذا النسب العالى النبيل ، والمجد المكسوب وهو هذا البيان الصافى الأصيل ، كان له أن يقوم بين أيدى ممدوحيه مقام العزيز الشامخ بأنفه ، وأن يصرخ فى وجه الوزير ، وقد قام مادحاً له ، فنسيه وذكر نفسه ، فانقلب منافراً مفاخراً :

وسل بى المجد تعلم أىّ ذى حسب ... فى بردتىّ إذا ما حادث هجما
يلين للخل فى عزّ عريكته ... محض الهوى وله العتبى إذا ظلما
من معشر لا يناجى الضيم جارهم
نضو الهموم غضيض الطرف مهتضما
والدهر يعلم أنى لا أذل له ... فكيف أفتح بالشكوى اليه فما

وكيف يشكو الدهر ، وشعره غرة فى جبين الدهر :

وكيف يشكو الدهر من شعره ... على جبين الدهر مكتوب ؟

أو لست تذكر المتنبى شاعرنا الأكبر ، حين تقرأ للأبيوردى فخره بنفسه وتمدحه بادلاجه فى الليل ، وانفراده فى الفلوات ترنو إليه النجوم وهو ساع ليكسب قومه عزاً وفخراً فى مطلع قصيدة يمدح فيها ويهنئ بالعيد . قال :

وبى عن خطة الضيم ازورار ... إذا ما جدّ للعلياء جدّى
فهل من مبلغ سروات قومى ... مصاحبتى على العزّاء غمدى
وإدلاجى وجنح الليل طاوٍ ... جناحيه على نصب وكدّ
وقد رنت النجوم الىّ خوصاً ... بأعين كاسرات الطرف رُمد
لأورثهم مكارم صالحات ... شفعت طريفها لهم بتلْد

وهو لا يزال أبداً يحب أن يجمع الى المجد التليد مجداً طريفاً وأن يؤيد المجد الموروث بمجد مكسوب ، لا يقنع بعلو نسبه ورفعة أجداده :

فشيدت مجداً رسا أصله ... أمت إليه بأمّ وأب

ولا يزال يمدح بهذه الخلة من يجدها فيه من ممدوحيه . قال :

مقتبل السن عقيد النهى ... تقصر عن غاياته الشيب
والملك لا يحمل أعباءه ... من لم تهذبه التجاريب
شيد ما أثّل من مجده ... والمجد موهوب ومكسوب

***

أبو على له فى خندف شرف ... لف العلى منه موهوباً بمكسوب

وهو لا يقنع من المجد بالشعر والأدب ، ولا بالمال والنسب ، ولكن له أملاً سياسياً بعيداً ، فهو يألم لما يرى من تفرق الأمراء وغلبة الأعاجم ، وينتظر (رجل الساعة . . .) المصلح المرتقب ، الذى يجمع شمل الأمة ، ويعيد لها شبابها ، فيدعو لذلك الملوك ، ويهيب بهم ، فلا يجد هذا البطل الأروع فرّاج الغمة ، محيي الأمة :

دهر تذأب من أبنائه نقد[1] ... وأوطئت عرب أعقاب أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطفها ... فمن لها بزياد أو بحجاج
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم ... نظفر بأروع للغماء فراج

فيفتش فى أمراء العرب وملوكهم فلا يجد فيهم من يرجى إلا الأمير أبا الشداد ، فيقصده بقصيدة يستثيره ويستفزه ، ويهيج فى نفسه الحمية العربية ، ويسأله كيف يرضى وهو اليوم أمل العرب وملجؤهم بأن يقنع العرب بصحراء زرود ورمال حاجر ، بينما يأكل الأعاجم الدنيا ، ويتناهبون الثراء والمجد ، ويحضه على أن يثيرها داحسية شعواء :

فايهٍ أبا الشداد إن وراءنا ... أحاديث تروى بعدنا فى المعاشر
أترضى وما للعرب غير ملجأ ... توسدهم رملى زرود وحاجر
فأين الجياد الجرد تخطو إلى العدى ... على علق تروى به الأرض مائر
وفتيان صدق يصدرون عن الوغى ... وأيدى المنايا داميات الأظافر
وحاجتهم إحدى اثنتين من العلى ... صدور العوالى أو فروع المنابر

فاذا يئس من أن يجد فى الناس هذا الرجل ، تقدم ليحقق أمله بنفسه ، فكانت حاله كحال المتنبى ، يسعى إلى رتبة أو ولاية يتخذها سلماً الى مثله الأعلى ، فيطلبها ولا يراها بدعاً ولا عجباً ، ولا يراه خلق إلا لها . . . واسمعه يقول لمؤيد الملك :

إليك أوى يا ابن الأكارم ماجد ... له عند أحداث الزمان طوائل
تجر قوافيه إليك ذيولها ... كما ابتسمت غبّ الرهام الخمائل
وعندك ترعى حرمة المجد فارتمى ... إليك به دامى الأظلين بازل
فليل إلى الرى الذليل التفاته ... وإن كثرت للواردين المناهل
وها أنا أرجو من زمانك رتبة ... يقل المسامى عندها والمساجل
وليس ببدع أن أنال بك العلى ... فمثلك مأمول ومثلى آمل

كان هذا أمله فى حله وترحاله ، وغايته من اغترابه عن بلده ، ونأيه عن أهله ، وما كان يطلب مالاً ولا ثروة ، وما كانت به حاجة

---

(١) قال فى اللسان : النقد جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه تكون فى البحرين . ويقال هو أذل من نقد . وأنشد :

رب عديم أعز من أسد ... ورب مثر أذل من نقد

للمال ، ولا ضاقت أرضه برزقه ، ورزق عياله ، واسمعه يقول لسيد الوزراء أحمد بن الحسين :

ولم نغترب مستشرفين لثروة … فرعى مطايانا بيبرين مبقل
ولكننا نحمى ذمار معاشر … لهم آخر فى المكرمات وأول
ومن سلبته نوشة الدهر عزه … فنحن لريب الدهر لا نتذلل

ولو هو أراد الغنى لناله ، لا سؤالاً واستجداء ، ولكن على ظبى السيوف وأطراف الرماح ، ولكنه يريد غاية بعيدة ، دونها جرع الردى وحياض الموت ، يسعى إليه بفتيان « من أمية » هم موقدو الحروب ومطفئوها :

ومن خاف أن يستصمر الفقر خده … وفى بالغنى لى أعوجى[1] ومنصل
ومكتحلات بالظلام أثيرها … وهن كأشباح الأهلة نحّل
ولا صحب لى إلا الأسنة والظبى … بحيث عيون الشهب بالنقع تكحل
وحولى من روقى أمية غلمة … بهم تطفأ الحرب العوان وتشعل
سريت بهم والناجيات كأنها … رماح بأيديهم من الخط ذبّل
لحلوا حُجَى الليل البهيم بأوجه … سنا الفجر فى أرجائها يتهلل
وخاضوا غمار النائبات ومالهم … سوى الله والرمح الرديني معقل
يرومون أمراً دونه جرع الردى … تعلّ بها نفس الكمىّ وتنهل
فبتنا وقد نام الأنام عن العلى … نسارى النجوم الزهر والليل أليل

وتمر الأيام وهو لا يصل إلى شىء مما يؤمل ، ويضيق بحالة الذل والمهانة ، فيلوم نفسه على قعوده ، ويعزم العزمة الفاصلة التى تكون فيها المنى والمنايا :

تقول ابنة السعدى وهى تلومنى … أمالك عن دار الهوان رحيل
فان عناء المستنيم إلى الأذى … بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مطهم … وفى الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة فيها المنايا أو المنى … فكل محبّ للحياة ذليل

وثبة أموية ، ينال بها عزّ أجداده الأمويين ومجدهم . فليس العز إلا أن يغامر المرء . ويحمل نفسه على الخطة التى تبقى ذكره فى الناس أبد الدهر ، فاما أن يموت فيقال لله دره ، وإما أن يكتب له الظفر :

ألم تعلما أنى على الخطب إن عرا … صبور إذا ما عاجز عيل صبره
فلا عزّ حتى يحمل المرء نفسه … على خطة يبقى بها الدهر ذكره
ويغشى غماراً دونها جرع الردى … فان هو أودى قيل : لله درّه
ولا بدّ لى من وثبة أموية … بحيث المجاج الليل والسيف فجره

ولا يثنيه عن وثبته الأموية بعد المدى ، ووعورة الطريق ، وما يعتور السبيل اليها من أخطار وخطوب أهونها الموت ، لأنه ألف حمل الخطوب ، وتعود الصبر ، وأعد للنائبات عزائم تروض إباء الدهر إذا شمس الدهر ، ولم يحفل بالدنيا وهى غضة غريضة ولم يبال بها ، أفيقبل عليها وهى جافة ذابلة ، وهل تثنيه عن مرامه لذاذاتها ؟

اسمعه حين يقول :

سل الدهر عنى أى خطب أمارس … وعن ضحكى فى وجهه وهو عابس
سأحمل أعباء الخطوب فطالما … تماشت على الأين الجمال القناعس
وأنتظر العقبى وإن بعد المدى … وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
وإنى لأقرى النائبات عزائما … تروض إباء الدهر والدهر شامس
وأحقر دنيا تسترق لها الطلى … مطامع لحظى دونها متشاوس
تجافيت عنها وهى خود غريرة … فهل أبتغيها وهى شمطاء عانس
ولى مقلة وحشية لا تروقها … نفائس تحويها نفوس خسائس

ولا يثنيه عنها رقة حاله ، ورثاثة أطماره ، فهو كالسيف القاطع البتار ، لا يضره الغمد ، وهمته كامنة فى ضمير الدهر ، ولا بد للضمير المستتر أن يظهر :

رأت أميمة أطمارى وناظرها … يعوم فى الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن فى أثنائها رجلاً … ترخى على الأسد الضارى غدائره
أغر فى ملتقى أوداجه صيد … حمر مناصله بيض عشائره
إن رث بردى فليس السيف محتفلاً … بالغمد وهو وميض الغرب باتره
وهمتى فى ضمير الدهر كامنة … وسوف يظهر ما تخفى ضمائره

وكأنك تسأل بعد هذا كله ، ألم يلق الشاعر شدة وعناء وهو يصرح بذكر الوثبة الأموية ، ويدعو اليها علناً فى ظلّ الحكم العباسى ، ألم يتنكر له أولو الأمر ، ويزوروا عنه ويناوئوه المداوة ، ويبطشوا به ؟ وها هو ذا الشاعر يخبرك بأنه لقى أذى كثيراً ، وشراً مستطيراً ، فريع من غير أن يذنب ، وجفى من غير أن يخون ؛ ولكنه اعتصم بالصبر ، ولاذ بالحزم ، ولم يلن ولم يشك ولم ينهزم :

(١) أى جواد كريم من نسل الأعوج المشهور

وقد طرقتنى النائبات بحادث ... لو ان الصفا يرمى به لتصدعا
أراع ولم أذنب وأجفى ولم أخن ... وقد صدّق الواشى فأخنى وأقذعا
ولست وإن عض الزمان بغاربى ... أطيل على الضراء مبكى ومجزعا
إذا ما أغام الخطب لم أحتفل به ... وضاجعت فيه الصبر حتى تقشعا

ولماذا يذل ويخضع ، وهو إن ضاقت عنه بلدة فستتسع له أخرى ، وحسب البلدة عاراً أن يرحل الشاعر عنها ، وإن أدلت عليه بابل بسحرها الحرام ، فهو يدل عليها بسحره الحلال ، ويجعل من شعره حيثما حلّ بابل ...

أبابل لا واديك بالرفد منعم ... لدينا ولا ناديك بالوفد آهل
لئن ضقت عنا فالبلاد فسيحة ... وحسبك عاراً أننى عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل سحرها ... فكل مكان خيمت فيه بابل
وأى فتى ماضى العزيمة راعه ... ملوكك لاروّى رباعك وابل

* * *

وبعدُ ... فاسمع الشاعر نفسه يصف لك شخصيته ، ويخبرك أنه يمدح ويأخذ ، ولكنه أعزّ من أن يملكه الملوك بثوابهم ونوالهم ، وأنه لا يستسيغ الذلّ ولا يحب أن يتمرغ فيه ظهراً لبطن ، ولا يألف حياة الدعة والأمن فى ظلّ الروض بين الكاس والطاس ، ولا يفرق من المنايا ويخشى المهالك ، ولكنه يريد أن يثيرها حرباً عواناً فى سبيل غاياته ومطامحه :

سواى يجرّ هفوته التظنى ... ويرخى عقد حبوته التمنى
ويلبس جيده أطواق نعمى ... تشف وراءها أغلال منّ
إذا ما سامه اللؤماء ضيما ... تمرّغ فى الأذى ظهراً لبطن
وظلّ نديم عاطية وروض ... وبات صريع باطية ودنّ
وأشعر قلبه فرق المنايا ... وأودع سمعه نغم المغنى
وصلصلة اللجام لدى أحرى ... بعز فى مباءته مبنّ
فلست لحاضن إن لم أقدها ... عوابس تحت أغلمه كجنّ
. . . .
وها أنا أوسع الثقلين صدرا ... ولكنّ الزمان يضيق عنى

* * *

هذه شخصية الأبيوردى وهذا شعره ، أفيستحق أن يهمل وينسى ؟ ...

(دمشق) على الطنطاوى

٢ – أثر الحرب الكبرى
فى بريطانيا

للأستاذ رمزى ميور
أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة منشستر سابقاً
ترجمة الأستاذ محمد بدران
ناظر مدرسة بماقادن الابتدائية

كذلك لم يعد لبريطانيا بعد الحرب ذلك السلطان الكبير الذى كان يوليها إياه تفوقها التجارى على أمم العالم أجمع . نعم إنها لا تزال تمتلك وتُسيّر ثلث سفائن العالم ، وذلك لأنها أوسع أسواق الأرض حرية ، لكن نصف سفنها معطل ؛ وقد خسرت جزءاً كبيراً من تجارتها الخارجية التى تُعوّل عليها فى حياتها وإن كانت صادراتها (منسوبة الى عدد السكان) لا تزال ضعفى صادرات أكبر الأمم المنافسة لها تقريباً . على أن ما فقدته من تجارتها الخارجية إذا رجع بعضه الى خطأ ارتكبته فلا يرجع كله أو جله إلى ذلك الخطأ . ذلك بأنها فى أثناء الحرب اضطرت أن تضحى بمعظم أسواقها الخارجية لكى تركز جميع قواتها القومية فى الأعمال الحربية . وذلك الفراغ الذى تركته شغلت بعضه أمم أخرى (كاليابان والولايات المتحدة) لم يُنقِض ظهرها عبء الحرب وشَغَل البعض الآخر ما قام من الصناعات القومية على أنقاض الواردات البريطانية . فلما وضعت الحرب أوزارها أقيمت لحماية هذه الصناعات حواجز من الضرائب الجمركية العالية ، وأخذت الأمم جميعها فى داخل أوربا وخارجها تعمل « للاكتفاء بنفسها » ، فأدى ذلك العمل الى النتيجة السالفة الذكر ؛ وكان من جراء ذلك أن بريطانيا التى لا أمل لها فى أن تكتفى بنفسها والتى لا تستطيع أن تحيا إلا بالاتجار مع العالم أجمع تجارة واسعة ، انحطت الى المنزلة التى انحطت اليها مدنية (ويانة) بعد الحرب . لقد كانت بريطانيا كما كانت ويانة تعتمد فى رخائها على موقعها فى

ملتقى الطرق التجارية الكثيرة فنالها ما نال ويانة بعد أن أقيمت الحواجز المتعددة فى هذه الطرق التجارية ، وإلى هذا يرجع معظم السبب فى ازدياد عدد المتعطلين . وقد بلغ من خطورة هذه الحال الجديدة أن أخذ قسم كبير من الرأى العام يدعو الى ترك نظام الحرية التجارية الذى تسير عليه بريطانيا واتباع سياسة « الاكتفاء بالنفس » التى تتبعها البلدان الأخرى . ولما كانت بريطانيا لا تستطيع أن تكتفى بنفسها إلا إذا خلصت من نصف سكانها فقد قويت فيها الدعوة الى التوسل لتلك الغاية ، غاية الاكتفاء بالنفس اكتفاء تاماً — بتوحيد الامبراطورية من الناحية الاقتصادية . فاذا ما رضيت أجزاء الامبراطورية بأن تتخلى عن مسماها للاكتفاء بنفسها — وبعيد أن ترضى بذلك فى القريب العاجل — كان معنى رضائها أن بريطانيا تضعف باختيارها أو قل تعطل ثلثى تجارتها الخارجية لكى تتفرغ إلى إنماء الثلث الباقى ؛ وإذا فعلت ذلك فانها تكون قد تحولت تحولا تاما عن السياسة التى قام عليها النظام الاقتصادى البريطانى حتى الآن

هذه التطورات تعد فى مجموعها انقلاباً خطيراً فى مركز بريطانيا ومبادئها يتطلب تعديلاً فى سياستها القومية ، ولاشك فى أن بريطانيا تجتاز الآن أزمة بل خطراً قومياً شديداً . على أن كل تغيير بمفرده لا يعد خطيراً فى ذاته . فاذا كان مركز بريطانيا الجزرى لم يعد يكفل لها السلامة فان سياسة عالية رشيدة تكفل لها سلامة أبقى وأعظم ؛ ولا يزال موقع هذه الجزيرة فى وسط أهم الطرق التجارية البحرية وفى قلب العالم المتمدين تقريباً خير موقع جغرافى يتمتع به بلد على وجه الأرض . وإذا لم تكن بريطانيا الآن سيدة البحار بلا منازع فان ذلك لا أهمية له إذا بقيت البحار فى سلام . وإذا لم تكن لها « السيطرة على امبراطورية فان خيراً من هذه السيطرة أن تكون هى القلب النابض لمجموعة من الأمم الحرة على شريطة أن تنظم هذه المجموعة تنظيما يمكنها من أن تتعاون تعاوناً حراً . وقد تكون بريطانيا وراء غيرها من الأمم فى اتباع أحسن وسائل التنظيم الصناعى ، ولكن هذا أمر يستطاع تداركه بالعمل والحكمة . وإن اندماج أجزاء مقاطعاتها الصناعية وقربها من الثغور التى تستمد منها حاجاتها ومن مصادر القوى اللازمة لها ، كل ذلك يكسبها ميزات عظيمة إذا أحسن الانتفاع بها .

وقد لا تجد بريطانيا فى بلادها حاجتها من الزيت أو القوى المائية . ولكن العلم والعمل كفيلان باستخراجهما من مناجم فحمها الغنية ؛ وربما كان النقص قد اعترى قدرتها المالية ، ولكن هذه القدرة لا تزال عظيمة برغم هذا النقص ، وفى الامكان زيادتها إذا اتخذت الوسائل الكفيلة بتشجيع الادخار ؛ وإذا أحسن توحيد مجهودها القومى بقيادة رشيدة فان هذا المجهود خليق بتخفيف عبء الضرائب الذى لا يزيد كثيراً على ما كان عليه منذ مائة عام إذا روعيت النسبة بين العهدين . كذلك لا يرجى أن تحتفظ بريطانيا بما كان لها من تفوق عظيم فى التجارة العالمية ، ولكن إذا أيقن عمالها والمشرفون على الصناعة فيها أن الواجب يقضى عليهم بأن يقاوموا كل منافسة شريفة بكفايتهم وحدها وأن يكونوا أنداداً لمنافسيهم وأن ينظموا بيوتهم ، إذا أيقنوا بذلك استطاعت بريطانيا أن تستعيد من الأسواق ما يضمن لأهلها ارتقاء مطرداً فى مستوى معيشتهم ، وأن تنمى مواردها وموارد الامبراطورية نماء عظيما

ولكن يلوح أنها إذا شاءت أن تنال هذه الأغراض فان عليها أن توجه إليها مجهوداً قومياً عاماً شبيهاً بالمجهود الذى أنالها النصر فى الحرب . ولا بد لها أن تتغلب على روح الاستسلام والقنوط وما يؤدى اليه من خور فى العزيمة . وأخيراً إن بلوغ هذه الغاية موقوف على نوع الحكومة القائمة فى البلاد وصفاتها ، وذلك لأن واجبات الحكومة فى الوقت الحاضر أكبر شأناً وأعظم أثراً مما كانت فى الماضى . وإن للطريقة التى تؤدى بها هذه الواجبات أثراً بليغاً فى نفوس الشعب لا يعادله أثرها فى الماضى ، ولذلك يهمنا أن نعرف كيف عدل نظام الحكومة البريطانية ذو الشهرة العالمية الكبيرة لكى يتفق مع مقتضيات العهد الذى أعقب الحرب

ليس الجواب عن هذا السؤال مما يسر له الخاطر ؛ فاننا إذا حكمنا على الأشياء بنتائجها تبين لنا أن نظام الحكم البريطانى أقل نجاحاً من النظام الفرنسى أو الألمانى الحديث فى بعث روح النشاط القومى الموحد وفى قيادة الأمة فى هذه الأوقات العصيبة ؛ وإذا حكمنا على هذا النظام بأثره فى أخلاق الناس من كافة الطبقات

رأينا أنه لم يخلق زعماء أنجادا قادرين على التفكير والانشاء ينالون ثقة الأمة ويتحملون التبعات أمثال شترزمان في ألمانيا ، أو بوانكريه وبريان في فرنسا (رغم ما فيهم من نقص) . وقصارى القول إن هذا النظام لم يفلح في إشعار الأمة بحاجتها إلى توحيد جهودها وخلق الزعماء الذين يقودونها في بذل هذه الجهود

وقد يكون سبب هذا العجز أن بريطانيا الآن تواجه عهداً جديداً بأداة حكومية لا تستطيع أن تعالج ما فيه من المشاكل . ويلوح أن السياسة البريطانيـة يسيطر عليها أكثر مما يجب التنافس الدائم على السلطة بين الأحزاب المختلفة التي لا يبذل كل منها جهده في العمل الانشائي المنتج بل في التشهير بغيره وكشف عيوبه ونقائصه . لسنا ننكر أن الأحزاب السياسية أداة ضرورية للحكم الديمقراطي ، ولكن يلوح أن نظام الأحزاب البريطانية جامد خال من المرونة يجعل المشرفين على سياستها شرذمة قليلة من الزعماء المطلقي التصرف يستقلون بوضع خطط الحزب ، ولا ينفكُّ أتباعهم أنفسهم يضمرون في نفوسهم الثورة عليهم وإن أطاعوهم في إعطاء أصواتهم ، وذلك لأن هؤلاء الزعماء ينكرون عليهم حرية المناقشة بله حرية العمل

لقد تكلمنا من قبل عما طرأ على نظام الحكم البريطاني من تغيير ، وقلنا إن أهم مظاهر هـذا الحكم مظهران : أولهما تركيز السلطة جميعها من تشريعية ومالية وإدارية في يد وزارة حزبية قليلة العدد أوقرت ظهرها المسئوليات الجسيمة التي أخذتها على عاتقها فأصبحت عاجزة عن النظر الى حاجات الأمة نظرة واسعة المدى . وثانيهما حرمان البرلمـان من كل سلطة إلا من اشراف صوري محض على أعمال الحكومة حتى صار عمله في الحقيقة مقصوراً على نقدها . إن في وسع البرلمان أن يشهر بأعمـال الحكومة ويعطلها . ولكنه ممنوع من أن يعمل شيئاً من عنده لاصلاحها . فلاعجب والحالة هذه إذا لم يكن في الامكان مواجهة الطوارىء القومية الخطيرة وعلاجها علاجاً ناجحاً . وإذا شاءت بريطانيا أن تنازل الصعاب التي قامت بعد الحرب وهي واثقة من النجاح كان عليها كما يلوح أن تبدأ باصلاح زعامتها وأداتها الحكومية

٢ — الامبراطورية البريطانية

تتألف الامبراطورية البريطانية من ثلاثة عناصر مختلفة : أولها الأملاك العظيمة التي تحكم نفسها بنفسها ، وهي أملاك كانت منذ زمن طويل ولا تزال حتى الآن دولاً مستقلة كل ما بينها وبين بريطانيا من روابط أنها تدين معها بالطاعة لتاج واحد ، وأنها تشترك معها فيما تتمتع به من نظم الحرية . وثاني هذه العناصر هو البلدان الشرقية ذات الحضارة القديمة ، وهي الهند وسيلان وبلاد الملايو ؛ وهي بلاد للحكومة البريطانية عليها إشراف مباشر أكبر ممـا لها على البلدان الأولى ، وإن كانت هذه البلدان أيضاً أخذت تطالب بحقها في حكم نفسها بنفسها ونالت بعض هـذا الحقّ في السنين الأخيرة . والعنصر الثالث أجزاء الامبراطورية المحكومة ، وتشمل أصقاعا واسعة في أفريقية لم تنضم إلى الامبراطورية إلا في خلال الخمسين سنة الأخيرة . وهذه الأملاك تسيطر عليها الحكومة البريطانية ســـيطرة فعلية بأشكال مختلفة . هذه الامبراطورية العجيبة التكوين التي تشمل ربع مساحة المعمورة وربع سكانها ، ليست موحدة التركيب ولا النظام ، وليست لها قوة مركزية فعالة تفرض طاعتها على هذه الأجزاء ، اللهم إلا قوة الأسطول . ولقد أخذ شكل هذه الامبراطورية منذ عام ١٨٣٠ يتغير تغـيراً مضطربا حسب الظروف ، ويتحول بالتدريج من امبراطورية بالمعنى الصحيح إلى ما يسمونه الآن أسرة من الأمم

على أن هذه الامبراطورية كانت إلى ماقبل الحرب بقليل وحدة متماسكة من ناحيتين مهمتين على أقل تقدير ، فقد كان لها سياسة خارجية واحدة تسيرها كلها (هويت هول) ؛ وكانت جميع أجزائها حتى الأملاك المستقلة التي كانت الروح القومية تضطرم فيها راضية بترك العلاقات الخارجية في يد وزارة الخارجية البريطانية ، وذلك لقلة دراية هذه الأجزاء وقلة اهتمامها بمشاكل أوربا ، واعتقادها أن لا شأن لها بهذه المشاكل ؛ ولم يؤخذ رأي مندوبي الأملاك المستقلة في السياسة الخارجية إلا في السنين المضطربة التي سبقت الحرب عندما اشتد الخطر الألماني ، فعقد المؤتمران الامبراطوريان في عامي ١٩٠٧ و ١٩١١ ؛ على أنه حتى في ذلك الوقت لم تتخذ وسائل رسمية لتنظيم طرق هذه الاستشارة أو الادارة العامة ،

وبقى وزير خارجية بريطانيا هو نفسه وزير خارجية الأمبراطورية جميعها . كذلك كانت الامبراطورية كلها تعتمد على نظام مشترك للدفاع عن جميع أجزائها ، وكان عبء هذا الدفاع يكاد يقع كله على عاتق بريطانيا ، كما كانت أداته الفعالة بطبيعة الحال هى الدستور الذى يحفظ طرق المواصلات البحرية بين مختلف أجزاء الأمبراطورية مفتوحة . والذى جعل للأسطول هذه الأهمية أن الأمبراطورية البريطانية لا يستطاع غزوها براً إلا من مكان واحد هو حدود الهند الشمالية الغربية ؛ فلما بدأت بريطانيا تخاف ألمانيا قبيل الحرب تبادلت أجزاء الأمبراطورية الرأى لأول مرة فى شؤون الدفاع ، واشتركت الأملاك المستقلة بعض الاشتراك فى نفقات الأسطول ، واتبع فى تنظيم القوات الحربية القليلة التى كانت هذه الأملاك تحتفظ بها نظام الجيش البريطانى ؛ وكان هذا الجيش قد أعيد تنظيمه قبل ذلك الوقت على يد اللورد هلدين ، ولكنه مع ذلك لم توضع خطة للدفاع الامبراطورى ، كما أنه لم تكن ثمة استشارة امبراطورية فى الشؤون الخارجية

وكان كثير من الناس يتوقعون أن الامبراطورية ستنهار وتتقطع أوصالها إذا ما لاح شبح الحرب لسبب ما هى عليه من ضعف فى النظام . وكانت ألمانيا بوجه خاص تتوقع أن تنفض الأملاك المستقلة يدها من النزاع ، وأن يندلع فى الهند لهيب الثورة ؛ وأن الأملاك الجديدة فى أفريقية وغيرها من القارات سيحتاج الاحتفاظ بها الى قوى كبيرة . لكن مجرى الحوادث بدد هذه الأوهام ، وكان من أعظم مظاهر الحرب ما تجلى من روح الاخلاص الاجماعى الحماسى فى كل جزء من أجزاء الامبراطورية تقريباً ، وما ضحت به هذه الأجزاء من أنفس وأموال تقدمت بها الشعوب فى أطراف الأرض عن رضا وطيب خاطر ، فقد جندت كندا وزيلندة الجديدة وأستراليا جميع رجالها تقريبا . ولما تمردت طوائف البوير الشاكسة فى جنوب أفريقية أخمد البوير أنفسهم هذا التمرد على الفور ، ثم بذل الشعبان اللذان تتكون منهما تلك البلاد جهدا عظيما فى الاستيلاء على المستعمرات الألمانية ، وأرسلا كتائب من بلادهما الى خنادق فرنسا . وفى الهند سكن الاضطراب السياسى الذى كان منتشرا قبل الحرب وأرسلت منها الى فرنسا وفلسطين والعراق والصين جيوش لم ترسل الهند مثلها من قبل الى ميادين القتال ، ولاح أن الحرب ومحنها أثبتت صلاحية نظام الأمبراطورية الحر الطليق على الرغم من تراخيه وقلة تماسكه . لكن ضخامة هذه التضحيات بدل موقف الامبراطورية بأزاء مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية ، وأحدث فى بناء هذه الامبراطورية تطورات غاية فى الأهمية ، فلم يعد فى الامكان بعدئذ أن تعالج هذه الأمور وكأنها لا تعنى الأجزاء النائية من الامبراطورية ، بل كان لابد من استشارة ممثليها بوسيلة من الوسائل إذا أريد أن تبقى هذه قائمة

وفضلا عن ذلك فقد شعرت الهند ، وكان لابد أن تشعر ، أنها بعد أن اضطلعت فى الحرب بهذا العمل الخطير قد قويت حجتها فى أن يؤخذ رأيها عن طريق الموظفين البريطانيين الذين يديرون دولاب حكومتها ، وأن يعترف بأنها وحدة قائمة بذاتها ، وأن تتمتع بما يتمتع به غيرها من أجزاء الامبراطورية من حقوق الاستقلال الداخلى ؛ وبذلك كانت الحرب سبباً فى تقوية الحركة القومية فى الهند وفى غيرها من أجزاء الامبراطورية

(البقية فى العدد القادم) **محمد بدران**

فى النقد أيضاً

للأستاذ محمد رفيق اللبابيدى

سيدى الأستاذ صاحب الرسالة

كنت أطمع ، وكان القراء يطمعون معى أن نظفر بسلسلة متصلة الحلقات من ردود لحولة أدبائنا على ما عرضت له فى (النقد المزيف) ، وعلى ما عرض له الأستاذ أحمد أمين ومن جاء بعده ؛ وكنا نود أن يكون لنا من هذا باب للولوج فى بحوث أخرى تعيد الأدب رجْعه إلى أيام احتدام النهضة الأدبية فيثب بعض الوثوب بعد قعوده هذا القعود طوال عشر السنوات الأخيرة ، وكأنا ذهبنا فى أمانينا هذه بعيداً فلم يعدُ الكلام بضع كلمات شابها كثير من الألوان التى نشكو منها ويشكو منها أيضاً الأستاذ أحمد أمين . . .

***

وكاتب هذه الكلمة اليك — أو هذه الرسالة إلى صاحب الرسالة — من تعلم صغير جداً وضئيل ، وليس له من القوة ما ينزل به فى ميدان يصول فيه كبار الكتاب والأدباء ؛ غير أنه ساير البحث الأدبى فى مصر منذ حين طالباً فيها ، وساير هذا الجمود فى الأدب أستاذاً فى معهد ثانوى بعيد عنها ؛ وقد يرى البعيد ما لا يراه القريب . ونحن معشر القراء فى خارج مصر أقدر على الحكم المجرد من العاطفة فيما هو جدير بالاحتفال به من آثار الأدباء والعلماء ؛ ثم نحن أقدر على إلغاء المجاملة الأدبية فيما نكتبه وهى ما تعوده الكتاب بعضهم من بعض ، يلبس كل منهم نقده لباساً من الأسلوب الصفيق لا تُرى من خلاله الحقيقة إلا كما ترى الشمس فى يوم ماطر ملبد بالغيوم

ولست أدرى ، أو إنى لا أحب أن أدرى ، السر فى هذا الذى يغمر بيئتنا الأدبية من قواعد الكياسة فى الحذر من اغضاب الأصدقاء والقرين حين نعرض لنقدهم . فالكاتب يريد أن يقول كلمته ، ولكن فى لجلجة المشفق الفرق ، ويريد أن يجهر بما فى نفسه ، ولكنه يتورع أن يكون جريئاً ، فقد يكون فى الغد فيما يكون فيه سواه اليوم ، وقد يقال فيه ما سيقوله هو فى غيره ، فهو واسع الحيلة يداور فى ارضاء القراء والذين يعرض الى تقدهم مداورة تحمله أن ينقد نقدا مجملاً فيه امتاع بالفكرة التائهة والرأى الطائر ، وذلك حسبه فى نقده

والحق أنى لو كنت كاتباً نابه الذكر ، طائر الصيت ، لربما كنت أشفق أن أقول اشفاق هؤلاء الكبار الفحول ؛ وداؤنا فى الشرق مستعص ما دام النقد شخصياً بعيداً عن المثل الأعلى ؛ وهذا الضعف الخلقى فى النقد اليه وحده يرجع — فيما نعتقد — سبب هذا الركود وهذا الجمود فى أدبنا المقعد

***

وبعد فيا سيدى الأستاذ هل النقد بالمعنى الذى نراد عليه نحن معشر القراء — والقراء من فئة خاصة طبعاً — هو هذا اللون من تناول الكتاب أو البحث تناولاً صورياً والكتابة فيه مثل هذه الكلمات الضافية ، فيها قدرة الكاتب وبراعتُه ، وليس فيها علمهُ وعقله ، ؟ ؟ وهل النقد الأدبى هو هذا الذى نسيغه فى صحافتنا كل يوم أو كل أسبوع من مجالات الكتاب وبحوثهم العابرة ؟ ؟

وهل النقد هو هذا التقريظ الذى يتولاه كتابنا حين يدفع المؤلف أو الباحث الى المطبعة كتابه أو مؤلفه فيخرجه بعد الجهد الجاهد فى أيامه وأعوامه ليتولى الحكم فيه كاتب يقلب صفحاته بعض الساعة وقد لا يزيد ؟ . ؟ .

الحق يا سيدى الأستاذ أن ضعف النقد يرجع إذا أجملنا القول الى :

١ — احتفال الناقد بشأن المنقود

٢ — النقد العابر الصورى

وإن النقد فى مصر — وهى سوق عكاظ العرب اليوم — لا يتجاوز هذين اللونين . والكتاب بين فريقين : فريق يتحامى المنقود ، وفريق يجهل فضله فيقول ما لا وزن له ولا قيمة ، فلا يعبأ بما يقوله القراء

***

ثم إن الطائل الذى يقع على كتاب مصر الفحول ومشيخة الأدب فيها عظيم جداً ، فهم قادة مسئولون ورعاة مطالبون بتأدية رسالتهم الأدبية ؛ والنقد بمقاييسه العلمية الصادقة يكشف المخبوء المتواضع من العبقريات المغمورة . وربَّ بحثٍ فى صحيفةٍ وجّه الأدب وجهة قوية ودفعه الى الغاية التى ينشدها هؤلاء العامة عليه دفعاً لا ازورار بين يديه ولا نكوص

ومتى كان لهذا النقد هذا الوزن فقال الناقد قولـه لم يخطب

شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ١ —

ما أظن أننا كنا نجد فرصة ، مثل موسم الشعر ، نقف فيها إلى الشعراء لنرى ما عندهم ، فقد أنشد كل شاعر قصيدة هى خير ما عنده ، أو من خير ما عنده . ولو أن الحفل كان لمناسبة من المناسبات التى يقال فيها الشعر فى غرض واحد ، لما كان يصح أن تكون مقياساً لتفاوت الشعراء وتفاضلهم ، فقد لا يجيد شاعر فى الرثاء مثلا ويجيد فى غيره ، وفى الوقت نفسه يكون إلى جانبه شاعر على عكسه فى ذلك . أما موسم الشعر فقد قال فيه كل شاعر فيما يحسنه ، وما تواتيه قريحته فى تناوله ، فالموسم إذن ميزان تميل كفته بالراجح فى الشعر لا ينقص من قدره شىء

ولقد كان الناس يقولون بانقضاء الشعر بعد شوقى وحافظ ، وكان الشعراء يدافعون هذا القول بوثبات غير مقنعة كل الاقناع ، ولكن موسم الشعر حمل إلى الناس دليلا على أن فى الجيل الحاضر جيلاً من الشعراء لا بأس به فى مجموعه ، وإن كان منهم من برز وبرع

ولكن الفرصة كادت أن تفلت ، وكاد الموسم يقضى بانقضاء الساعتين اللتين شغلهما الشعراء بالقاء القصائد ، مودعاً بكلمات إخبارية من الصحف لا تغنى عن النقد شيئاً ؛ فلم يقض الموسم من عمره إلا المرحلة الأولى وهى عرض الشعراء قصائدهم ، فما كادوا ينتهون من ذلك حتى انفضت السوق ولم ينصب لهم ميزان ؛ والحق أنى كنت أوثر أن أكون شاهدا للموسم ، مستمتعاً بما يجرى فيه على أن أجوب مععمته وأقيم ميزان النقد فى سوقه ؛ ولكن النقاد حرمونى هذه المتعة باحجامهم عن النقد ، ولست أدرى لماذا أحجموا

أما وقد أخذت على نفسى أن أسلك فى هذه المهمة سبيل الحق ، عالماً بما فى هذا السبيل من أشواك ، موطد العزم على اجتيازها ، فلا يبقى إلا رجاء التوفيق وإلهام الصواب . وأخذا فى تلك السبيل سنتبع فى تصفح القصائد وتفحصها ترتيب الشعراء أنفسهم فى الالقاء إذ كان ذلك على حسب الحروف الهجائية

عاصفة روح

قصيدتان ألقاهما الدكتور ابراهيم ناجى ، وقدم لهما بهذه العبارة : « قصة نفس ، ذات فصلين : الأول ثورة النفس بينما الزورق يغرق والملاح يستصرخ ؛ والثانى استيقاظ الكبرياء بعد هدوء العاصفة »

والواقع أن هذه العناوين : «عاصفة روح . قصة نفس . ثورة نفس . كبرياء » ليست ذات حظ كبير من المدلولات فى القصيدتين ، نستثنى منها « الكبرياء » لأربعة أبيات فى آخر القصيدة الثانية التى سماها بهذا الاسم (الكبرياء) تحدث فى هذه الأبيات عن الشمم والكبرياء حديثاً يملأ النفس ويفعم القلب ، وهى :

أيخيفنى العشب الضعيف أنا الذى
أسلمت للشوك الممض أديمى

وإذا ونى قلبى يدق مكانه ... شممى وتخفق كبرياء همومى
ورجعت أحمل جبهتى متحدياً ... زمنى بها وحواسدى وخصومى
ورفعت نحو الله رأسا ما انحنى ... بالذل يوماً فى رحاب عظيم

وهذه أبيات جيدة ؛ غير أن كبرياء الهموم أمر لا يطاق ! وسياق المعنى يقتضى كبرياءه هو لا كبرياء همومه ؛ أما فيما عدا هذه الأبيات فلا تجد روحاً ، لا عاصفة ولا غير عاصفة ، ولا تجد

به ودّ المنقود ، ولم يتملق به عاطفة الجمهور ، ولم يستلّ به سخيمة فى نفسه ، اختفت هذه العيوب التى نشكوها ، وقويت الصراحة على هذا الضعف ، وأحجم غير الأكفاء أن يلجوا بابه ويقتحموه ولوجهم له اليوم ، وكان ما يدور بين الكتاب والأدباء والعلماء درساً من دروس عامة يفيد منها الجمهور وتفيد منها البيئة الأدبية ، ثم كان هذا النقد أساساً صخريا فى بناء نهضتنا الأدبية فى عصرنا الحاضر

هذا وحسبى يا سيدى الأستاذ أن أكون فى كلمتى هذه قد بثثتك بعض ما يُحسُّ به كثير من القراء فى الخارج ؛ وقد يكون بعض ما يحسُّ به كثيرون فى مصر ؛ ورجاؤنا أن يتسع صدر (الرسالة) لمثل هذا النقد اتساعه للنواحى الأخرى التى نرى ، وأن تكون رسالتها سفارة الحقيقة المبسوطة بين الكتاب والقراء لاترعى فى ذلك غير ما تقتضيه إياها المقاييس الأدبية ؛ والسلام على الاستاذ ورحمة الله وبركاته

محمد رفيق اللبابيدى

فى قصيدة « ثورة نفس » وهى الفصل الأول (للاقصة) نفساً ، لا ثائرة ولا هادئة ؛ وانما هى ثورة كلمات على أوضاع الكلام ، وتمرد عبارات على أداء المعانى . . مهلاً أيها القلم ، لقد قالوا إن هذا شعر جديد . . وأغض النظر عن كلتى جديد وقديم ، وأناقش هذا الكلام على أنه شعر لابد أن يؤثر فى النفس ، ولابد أن يصاغ فى عبارات سليمة ، ولن تغنى كلمة جديد عن شىء من ذلك

يقول الشاعر :

أين شـط الرجاء يا عباب الهموم
ليـلتى أنواء ونهـارى غيوم
أعولى يا جراحْ أسمعي الديان
لا يهـم الرياح زورق غضبان
البـلى والثقوبْ فى صميم الشراع
والضنى والشحوب وخيـال الوداع

الى هنا تستطيع أن تعرف أن نفساً غارقة فى الهموم تسأل عن شط الرجاء ، وتشكو من أنواء الليل وغيوم النهار ، وتطلب الى جراحها أن تعول لتسمع الديان ، فالرياح لا يهمها زورق يقول عنه الشاعر : غضبان ! مع أن الرياح هى الغاضبة عليه ، وأما هو فسكين ، رقيق الحال ، بال ، مثقوب الشراع ؛ ويظهر أن الضنى والشحوب وخيال الوداع من آلام تلك النفس ، إذ لم يقل لنا ماذا جرى لها ، وليس فيما قبلها ماله صلة بها . إلى هنا تستطيع أن تدرك معنى هذا الكلام ، وان كان لم يؤد اليك تأدية شعرية تصل الى نفسك ، أما ما بعد ذلك فكلمات صاخبة فى بحر من النظم ، وعبارات متمردة ثائرة : فالسكين ترقص ، والفجر مذبوح ، والدجى مخمور ، والردى سكران ، والظلام يتولى فى عناق الصخور ؛ ولا يقولن أحدٌ أننى أبتر الكلام ، فهذان البيتان :

كان رؤيا منام كأسك المسحور
يا ضفاف السـلام تحت عرش النور

ما معناها ؟ ضفاف السلام التى تحت عرش النور كأسها المسحور كان رؤيا منام ! !

والمتأمل يرى أن فى القصيدتين محاولة لتصوير قصة نفس وابراز فكرتها وهى اعتصام النفس بالكبرياء من عواصف الهموم والآلام ، ذلك أن النفس الكبيرة تمر بها الهموم والآلام لا تنال منها شيئاً ، وإن استسلمت لتواردها فانها لا تلبث أن تمتنع منها بالكبرياء والشمم ؛ ولكن القصة وفكرتها لم يأخذا حظهما من التصوير والابراز

أوبة الطيار

وهى قصيدة الأستاذ أحمد رامى ، مستواها عادى ، ومعانيها عامة وقليلة ، ونستطيع أن نقول إنها قصيدة لفظية ، فألفاظها سمحة وإن كانت ضنينة بالمعانى . ومن يسمع هذه القصيدة أو يقرؤها يدرك قصور الشاعر عن التحدث فى موضوع القصيدة عن خوالج نفسه ، أو باقفار النفس من الخوالج فى هذا الصدد

يقول فى مطلع القصيدة :

فى سكون المساء والبحر ساج والسحاب العبير فى الجو سار
كنت أرنو إلى الغروب وأروى ناظرى من صبابة الأنوار
فاذا بى ألتى دخاناً ولا غيـ ـم وريحاً وليس من إعصار
فتبينت أستشف جبين الـ أفق من بين هذه الأستار
فاذا هى جماعة من بنات الـ ـريح تطوى الفضاء عبر البحار

أعجبنى البيت الثانى ، ومن حسنه التعبير بصبابة الأنوار عما يكون وقت الغروب ، وترويه النظر بهذه الصبابة التى هى أجمل من النور كله ؛ وبعد ذلك يقول إنه لقى دخاناً غير مصحوب بغيم وريحاً ليست من إعصار ، فلما كان الدخان من غير غيم والريح من غير إعصار ، فقد جعل يتبين .. الخ ، وفى هذا خطأ فى ترتيب الفكر فليس الدخان ينشأ من الغيم ، والريح لا يلزم أن تكون من إعصار ، حتى يتلمس لهما سبباً آخر . على أنه لا يزال فى موقفه ومشهده ، ويذكر فى البيت الأول أن السحاب يسير فى الجو ، ثم يقول فى الثالث : لا غيم . وهل الغيم سوى السحاب ؟ ! . وفى البيت الخامس يشبه سير الطيارات فى الفضاء بعبور البحار ، وهذا التشبيه ليس إلا عبرا إلى القافية

والتعبير « حداة الرياح » فى قوله :

يا حداة الرياح ماذا لقيتم من ركوب الأهوال والأخطار

ليس من الصواب فى شىء لأنهم لا يسوقون الرياح ولا يغنون لها ، وإلا فما معنى حُداء الرياح ؟

ومن الأبيات الحسان فى القصيدة قوله عن الطيار :

وأبو الهول فى الفلا كاد يقفى ثم يرنو اليـه بالأنظار

وإن كان أبو الهول فى فلاة واحدة لا فى « فلا » متعددة

والملتقى عند قصيدة « صرعى الأغراض » للأستاذ أحمد الزين

عباس حسان خضر

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ٥ —

ونزل متشنيكوف فى معهد بستور ، على سكون هذا المعهد ووقاره ، نزول الصخرة فهزه هزا . ونصب فيه مهرجاناً بهلوانياً عظيما ظل منصوباً عشرين عاماً ، ووقف على باب هذا المهرجان يزعق ويصفق ويصفر ويزمر يدعو الناس إلى إحيائه بالدخول زمراً إلى رحابه وأرجائه ، فكان كالدلال قام على باب مسجد لا يغشاه إلا نساك زهاد لم يذوقوا لهو طعما ، ولم يستسيغوا دعابة أبدا

جاء باريس فوجد اسمه شائعاً ، وأمره معروفاً مشهوراً . فنظرية الحصانة التى ابتدعها — ولعل وصفها بالدرامة الهياجة أوفق وأنسب — هذه النظرية التى تخبرنا بأننا حصينون من الأدواء لأن حرباً طاحنة لا تفتأ قائمة بين الكرات البيضاء التى فى دمائنا وبين المكروبات الغازية — هذه النظرية بل هذه الأحدوثة كان شاع أمرها لدى بحاث أوروبا فقاموا لها وقعدوا . وعارضه فيها أكثر بحاث ألمانيا والنمسا فلم يؤمنوا بها ، بل لعلهم أغروا بالايمان بها لبساطتها وجمالها ، فقام هذا الاغراء يدفعهم إلى نقيضه لما أحسوا ضعف أنفسهم فيه فأنكروها إنكارا شديدا قاسياً . ونالوا من متشنيكوف باللسان فى المؤتمرات ، وبالتجربة فى المعامل . مثال ذلك رجل ألمانى شيخ نذر على نفسه لله ألا يمر عليه حول حتى يكتب مقالاً فى مجلة علمية خطيرة يدحض بها تلك النظرية وينال فيها من الفجوسات ومن صاحبها . وجاء على متشنيكوف حين من الزمن لم تقو رجلاه على حمله من تلك اللطمات ، وكان يغشى عليه فيسقط إلى الأرض صريعاً . وعزه النوم وطالت لياليه فكاد يفزع إلى عقاره المخدر القديم — إلى المرفين ، حتى لقد عاوده خاطر انتحاره المعهود .

أوّاه ! كيف لا يستطيع هؤلاء الألمان الخبثاء الأنجاس أن يروا الحق فى الذى يقوله عن هذه الفجوسات ! ثم اشتفى من كمده ، فكأن وتراً انقد فى مخه ، فنهض كالليث يحمى عرينه ويدفع عن نظريته بعزيمة لا تخشى شيئاً ، فجال وصال ، وطلب الخصام والنزال ، وكانت معركة بها أضاحيك كثيرة وعلم قليل ، ولكنها برغم ذلك تضمنت نقاشاً عليه انبنى ذلك النزر اليسير الذى نعلمه اليوم من سبب حصانتنا من المكروبات

صاح أميل بارنج[1] من وراء الحدود الألمانية : « لقد أوضحت إيضاحاً لا ريبة فيه أن مصل الفئران هو الذى يقتل جراثيم الجمرة — أن دم الحيوانات لا كراته البيضاء هى التى تحميهم غائلة المكروب وتحصنهم منه » . فصاح كل خصوم متشنيكوف وكل أعدائه الألداء يؤمنون فى نفس واحد على الذى قال بارنج . وخرجت المقالات العلمية تتبارى الى النشر بمقدار يملأ دور كتب جامعية ثلاث كتبت جميعها فى فضائل الدم وأنه الشىء الوحيد الخطير فى منع الأدواء

وزأر متشنيكوف من وراء الحدود الفرنسية : « إن الفجوسات ، إن كرات الدم البيضاء هى التى تأكل الجراثيم العادية فتدفع سوءها عنا » ، ونشر تجارب بديعة أجراها فأثبت بها أن بشلات الجمرة تستطيع النماء بوفرة فى دم الشياه التى حصنتها ألقحة بستور

وصمد الفريقان للكفاح زماناً طويلاً ، وتمسك كل بموقفه الكاذب رغم ما فيه من غلو ، وغمرهما غبار الحرب الكثيف وأعمتهما غضبته عشرين عاماً ، فلم يخطر على بال أيهما أن يستمهل قليلاً ، وأن يخلو إلى نفسه للتفكير يسيراً ، فلعل كلا منهما رأى وجهاً واحداً من أوجه الحقيقة وهى عديدة ، ولعل الذى يحمينا من غائلة المكروب ليس هو الدم وحده ، وليست هى كراته البيضاء وحدها ، بل هما جميعاً . لقد كانت حرباً رائعة ومزرية فى آن ، حرباً من تلك الحروب التى يقول فيها الخصم لخصيمه : « أنت كذاب » فيرد عليه صاحبه الجواب بمثله : « لا ، بل أنت الكذاب » ، وفى أثناء هذه التهم عمى متشنيكوف وخصماؤه فلم يفطنوا الى أن سبب الحصانة قد يرد بعضه الى

(١) عالم المكروب الألمانى وقد مرت ترجمته

الذى قال متشنيكوف ، وردّ بعضه الى الذى قال به خصماؤه . ماكان أجدر الاثنين أن يضعا الحرب حيناً فيعصرا العرق عن جبهتيهما ، ويمسحا الدم من أنفيهما ، ويفكرا فى هدوء ساعة ليدركا كثرة ما يجهلان ، وقلة علمهما مما فيه يختصمان ، وليدركا أن الدم وفجوساته أشياء معقدة خدّاعة ليست فى البساطة التى يزعمان ، إذن لأبطآ فى السير واستمهلا فى الاستنتاج وأبقنا أن من الغباوة فى ظلمة هذه الجهالة أن يتعجلا تفسيرات مُبتسرَة لحصانتنا من الوباء

ليت متشنيكوف لم يخرج عن أودسا ، بل ليته اعتكف فيها يلفّه خمول ذكره ويحميه ، ثم تدرّع بالصبر وتابع أبحاثه الجميلة فى تعليل لِمَ تأكل الخلايا الأفّاقة فى براغيث الماء تلك الخمائر التى دخلت اليها [١] . إذن لأتى على كل أمرٍ جَلَل خطير . ولكن من ذا الذى يتحكم فى أقدام البُحّاث وهى لا تسير دائما فى الطرق السلطانية التى رصفها المنطق وعبّدها العقل السليم

فى أيام بستور العظيمة ، أيام كافح داء الحمرة وانتصر على داء الكَلَب ، كان يعمل فى خفاء شديد كأنه بعض القطّارين الذين يقطرون السموم خُفية فى أقباء احتجبت تحت الأرض عن أعين الناس ، ولم يأذن لأحد أن يطّلع على ما هو فيه إلا عونيه رو وشمبرلاند ورجلاً أو اثنين آخرين ، وفى ذلك المعمل الرطب المعتم بشارع أُلم كان لا يلْقَى المتطفّلين المتشوّفين إلى علم ما يجرى بمعمله إلا بالنهر والتجبيه ، وطرد عن بابه حتى كل جميلة من الأوانس فاتنة . هذا بستور ! أما متشنيكوف فله فى ذلك حديث غير هذ الحديث

اختلف متشنيكوف فى هذا كل الاختلاف عن بستور . كانت له لحية لها أثرها البالغ فى رائيها ، وجبين عريض يعلو عينين تنظران بحَوَلٍ ظاهر وذكاء بيّن من وراء نظارته ، وشعر طال فى قفاه حتى غطاه على حال تنبئك بأنه غارق فى أفكاره فلا يكاد يصحو فيحس الحاجة الى حلقه . وكان واسع العلم فلا تكاد تفوته فائتة . وكان يستطيع أن يفاكه ويسلى ــ وهذا محقق عنه ثابت ــ بألوف من طرائف علم الحياة ومُمتِع خفاياه ، فهو يحدّثك بأنه رأى الخلايا الأفّاقة الدوّارة فى جسم فرخ الضفدع Tadpole تذهب الى ذيله فتأكل منه حتى تأتى عليه فيصير الفرخ ضفدعا [١] وهو يحدثك بأنه أشعل ناراً فى دائرة حول عقرب ليثبت أن هذه الخلائق التعسة لا تقتل نفسها انتحاراً كما يقول الناس بلدغ نفسها حين لا تجد مخلصاً من النار ، وهو يحدثك بهذه الفظائع بطريقة تجعلك ترى الخلايا الأفاقة تروح وتجىء تبتلع ذيل الضفدع بلا أسف ولا تبكيت ، أو تسمع حسيس العقرب وقد عزّ عليها الخلاص وحاق بها الفناء

وكانت تسنح له أفكار رائقة فى اجراء تجارب فيقوم عليها محاولاً إنفاذها بعزم قوىّ وتركّز شديد ، ولكنه كان يزيح العلم وينحّى التجريب إذا سنحت له السانحة بمدح مُتْسَرْت Mozart وأُبرائه ، أو خطر له الخاطر من بتهوفن Beethoven فهزّه الى صفير شىء من سنفوناته [٢] . وإنك لحاسبه أحيانا يعلم عن جوته [٣] Goethe ودراماته ، ويعلم عن عشقه ومعشوقاته ، فوق الذى يعلمه عن فَجُوساته ، وهى التى بنى شهرته عليها . وكان لا يتكبّر على من هم دونه ، وكان كثير التصديق لكل ما يقال له حتى لامتحن الأدوية لبعض الدّجالين المتطبّبين بأن أعطاها لخنازيره الغينية وهى فى سبيل الموت زعماً أنها تشفيها . وكان رجلا طيّبا ذا قلب عطوف رحيم ، فكان إذا مرض له صديق غمره بكل هدية مستطابة وكل نصيحة مختارة ، وبلّلَ وِسادته بالدمع يجرى مدراراً فأسموه من أجل ذلك « بالخالة متشنيكوف » وكانت آراؤه فى غرائز البدن وحاجات الحياة تختلف اختلافاً رائعاً عن أى باحث سمعتُ به غيره . « والحق أن العبقرية الفنية ، أو لعلها كل العبقريات من كل نوع كان ، تتصل اتصالاً وثيقا بالنشاط الجنسى ... ومن أجل هذا تجد الخطيب أبرع وأخطب فى حضرة امرأة يبذل لها من ودّه وقلبه »

وكثيراً ما أكّد لنا هو نفسه أنه أقدر ما يكون فى التجربة على الاحسان ، إذا كان على مقربة منه أوانس حسان

(يتبع) أحمد زكى

(١) مر ذكر هذا فى الأعداد السابقة

(١) يبيض الضفدع فى البرك وفى كل ماء راكد ثم يتفقس البيض عن فرخ ذى ذيل أشبه شىء فى مظهره بالسمك ثم ينقلب الفرخ الى ضفدع بالغ تتخلق أعضاء له ويفقد ذيله

(٢) منسرت وبتهوفن Beethoven Mozart المؤلفان الموسيقيان المعروفان (٣) Goethe شاعر الألمان المعروف

أعلام الإسلام

٤ ـ سَعيد بن المُسَيِّب

تتمة

للأستاذ ناجى الطنطاوى

مرضه

قال عبد الرحمن بن حرملة : رأيت سعيد بن المسيب فى مرضه يصلى مضطجعاً مستلقياً فيومىء برأسه إلى صدره إيماء ، ولا يرفع إلى رأسه شيئاً

وقال أبو حازم : قال سعيد بن المسيب فى مرضه الذى مات فيه : إذا ما متّ فلا تضربوا على قبرى فسطاطاً ، ولا تحملونى على قطيفة حمراء ، ولا تتبعونى بنار ، ولا تؤذنوا بى أحداً ، حسبى من يبلغنى ربى ولا يتبعنى

وقال عبد الرحمن بن الحارث المخزومىّ : اشتكى سعيد ابن المسيب فاشتد وجعه ، فدخل عليه نافع بن جبير يعوده وهو مضطجع على فراشه ، فأغمى عليه ، فقال لمحمد ابنه : حوّل فراشه ، فاستقبل به القبلة ، ففعل ، فأفاق فقال : من أمركم أن تحولوا فراشى إلى القبلة ؟ أنافع بن جبير أمركم ؟ فقال نافع : نعم ، فقال له سعيد : لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعنى توجيهكم فراشى . وفى رواية : ألست امرأ مسلماً ، وجهى إلى الله حيثما كنت ؟

وقال زرعة بن عبد الرحمن : شهدت سعيد بن المسيب يوم مات يقول : يا زرعة ، إنى أشهدك على ابنى محمد ، لا يؤذن بى أحداً ، حسبى أربعة يحملونى إلى ربى ، ولا تتبعنى صائحة تقول فىّ ما ليس فىّ

وقال يحيى بن سعيد : لما حضر سعيد بن المسيب ، ترك دنانير ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أتركها إلا لأصون بها حسبى ودينى

وقال : دخلنا على سعيد نعوده ، ومعنا نافع بن جبير ، فقالت أم ولده إنه لم يأكل منذ ثلاث فكلموه ، فقال نافع بن جبير : إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها ، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم فلو أكلت شيئاً . قال : كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذا بضعة يذهب بها الى النار أو الى الجنة . فقال نافع : أدع الله أن يشفيك ، فان الشيطان قد كان يغيظه مكانك من المسجد . قال : بل أخرجنى الله تعالى من بينكم سالماً . ودخل المطلب بن حنطب على سعيد فى مرضه وهو مضطجع ، فسأله عن حديث ، فقال : أقعدونى ، فأقعدوه فقال إنى أكره أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع

وقد اختلفت روايات المؤرخين فى سنة وفاته ، وتنحصر رواياتهم بين سنة ٩١ وسنة ١٠٥ ، على أن أكثر الأقوال تؤيد أن وفاته كانت سنة ٩٤

شىء من أقواله وفتاويه

قال : ما من تجارة أحبّ إلىّ من البزّ ، ما لم تقع فيه الأيمان

وقيل له : ادع على بنى أمية فقال : اللهم أعزّ دينك ، وأظهر أولياءك ، واخز أعداءك فى عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم

وقال على بن زيد : قال لى سعيد بن المسيّب : قل لقائدك يقوم فينظر الى وجه هذا الرجل والى جسده ، فانطلق فنظر فاذا رجل أسود الوجه ، فجاء فقال : رأيت وجه زنجى وجسده أبيض . فقال : إنّ هذا سبّ هؤلاء الرهط : طلحة والزبير وعلياً ، فنهيته فأبى فدعوت عليه وقلت : إن كنت كذّابا فسود الله وجهك ، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه !

وأدرك رجلاً من قريش معه مصباح فى ليلة مطيرة ، فسلّم عليه وقال : كيف أمسيت يا أبا محمد ؟ قال : أحمد الله . فلما بلغ الرجل منزله دخل وقال : نبعث معك بالمصباح ؟ قال : لا حاجة لى بنورك ، نور الله أحبّ إلىّ من نورك

وقال : لا تقولُنّ مصيحف ولا مسيجد ، ولكن عظموا ما عظم الله ، كل ما عظّم الله فهو عظيم حسن

وكان يقول : لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وحسبه ويصل بها رحمه

وكان يقول : الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم ،

فاذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه ، فبدت للناس عورته

وكان يقول : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلاّ بالانكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة

وكان يقول : من استغنى بالله افتقر اليه الناس

وكان يقول : ليس من شريف ولا دنىّ ولا ذى فضل ، إلاّ وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه ، وهب فضله لنقصه

وقال : يقطع الصلاة الفجور ، وتسترها التقوى

وقال : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عزّ وجل ، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله ، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوّه يعمل بمعصية الله

وقال ما أيس الشيطان من شىء إلا أتاه من قبل النساء

وقال : يد الله فوق عباده ، فمن رفع نفسه وضعه الله ، ومن وضعها رفعه الله

وقال : دخلت المسجد فى ليلة أضحيان ، وأظنّ أنى قد أصبحت ، فاذا الليل على حاله ، فقمت أصلى ، فجلست أدعو ، فاذا هاتف يهتف من خلفى : ياعبد الله ، قل . قلت : ما أقول ؟ قال : قل : اللهمّ إنى أسألك بأنك مالك الملك ، وأنك على كل شىء قدير ، وما تشاء من أمر يكن . قال سعيد : فما دعوت بها قط بشىء إلا رأيت نجحه

وقال : إن الدنيا نذلة ، وهى الى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها بغير وجهها ، ووضعها فى سبيلها

وكان يستفتح القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول : إنها أول شىء كتب فى المصحف ، وأول الكتب ، وأول ما كتب به سليمان بن داود الى المرأة (بلقيس)

وقال حبيب بن هند الأسلمى : قال لى سعيد بن المسيّب ونحن على عرفة : إنما الخلفاء ثلاثة . قلت : من الخلفاء ؟ قال : أبو بكر وعمر وعمر (يعنى عمر بن عبد العزيز) قلت : هذا أبو بكر وعمر قد عرفناها فمن عمر ؟ قال : إن عشت أدركته ، وإن مت كان بعدك

وقيل له وقد نزل الماء فى عينه ، ألا تقدح عينك ؟ قال : عنى — على مَن — أفتحها ؟

وقال : كنت بين القبر والمنبر ، فسمعت قائلا يقول ولم أره : اللهم إنى أسألك عملاً باراً ، ورزقاً دارًّا ، وعيشاً قاراً . قال سعيد فلزمتهنّ فلم أر إلاّ خيراً

وسأله عبد الرحمن بن حرملة قال : وجدت رجلا سكران ، أفتراه يسعنى إلا أرفعه الى السلطان ؟ قال له سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره

وقال له برد مولاه : ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء ، قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ، ثم لا يزال صافًّا رجليه يصلّى حتى العصر . فقال سعيد : ويحك يا برد ! أما والله ما هى بالعبادة ، تدرى ما العبادة ؟ إنما العبادة التفكر فى أمر الله والكفّ عن محارم الله . وقال : قلة العيال أحد اليسارين

وسئل عن قطع الدراهم فقال : هو من الفساد فى الأرض

وسئل عن آية من كتاب الله فقال : لا أقول فى القرآن شيئاً

وكان لا يكاد يفتى فتياً ولا يقول شيئاً إلاّ قال : اللهم سلّمنى وسلّم منى

وقال : من حافظ على الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة

وسئل عن اللعب بالنرد فقال : إذا لم يكن قماراً فلا بأس

وغضب سليمان بن عبد الملك (١) على ابن عبيد مولاه ، فشكا إلى سعيد بن المسيّب فكتب اليه : أما بعد ، فان أمير المؤمنين فى الموضع الذى يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته ، وفى عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين فرضى عنه

(دمشق) ناجى الطنطاوى

بكالوريوس آداب

(١) أو الوليد بن عبد الملك

الاسكندرية

بقلم حبيب عوض الفيومى

لا روضةٌ كغياضِ الرمْلِ مِئْنافُ
ولا كمصطافها فى الأرض مُصْطاف

ولا كمنظرِها سَلْوى لذى حَزَنٍ   ولا كآلاَئها فى الحسنِ آلاف
أضحت على كلِ حُسنٍ مؤنقٍ عَلَماً   مذ كان للشىء أعلامٌ وأوصافُ
بأكرِنُها وطيورُ الدوحِ جانحةٌ   ولؤلؤ الطلِّ فوقَ الزهرِ رَفّاف (١)
وللنجوم تلاشٍ فى مَسارِبِها   كأنها لسهامِ الشمسِ أهداف
والأفقُ مُلتهبٌ فى الشرقِ تحسَبُه   تِبراً له من وراءِ الغيمِ تَخطاف
والريحُ عاطرةٌ بالنشرِ ساطعةٌ   يَنْشيكَ مُنْتَشَقٌ منها ومُستافُ (٢)
فى فِتيةٍ أُنشئوا إنشاءَ قَسْوَرةٍ   فليس فيهم لدى الإقدامِ وقّافُ
ذوى وجوهٍ وآراءٍ تُضىء لهم   إذا ادْلَهَمَّتْ من الأحداث أسداف
من كل منتخَبٍ فى القولِ مُنْتَدَبٍ   فى الهولِ ، فهْوَ أديبٌ وهْوَ سَيّافُ
فى جنةٍ مثلِ تَرْوِيضِ البِساطِ زَهَتْ   منها غُصونٌ مُوَشّاةٌ وأفواف (٣)
تَشابهت فى الْتفافِ النَبْتِ واختلفت
أفنانُهـــا فَهْىَ ألوانٌ وألفاف

فيها نخيلٌ وأعنابٌ وفاكهــةٌ   شتّى وأجناسُ رَيْحانٍ وأصناف
رَفَّ الذبابُ على نُوّارِها فله   فى بَلْجَةِ الشمسِ تغريدٌ وتَهفاف
وللأكمّةِ من أزهارِها سُرُجٌ   مضيئةٌ حولها للنحل تَعزافُ
يَهفُو الفَراشُ عليها أبيضاً يَقَقاً   كما أطار فُضاضَ البِرْسِ مِنْدَاف (٤)
وللطيورِ على أغصانها زجَلٌ   تُشجيك منه مزاميرٌ وأعزافُ
تجمعت فى سماء فهى فاختةٌ   وَساقُ حُرٍّ وشُحْرورٍ وَخُطّاف (٥)
تَعلو الأنَفَ شتّى ثم تُذهِلُها   نجوى الهوى فلها فى الأرضِ إسفافُ

وأينما مِلتَ فالايقاعُ مُتّصِلٌ   تُلْقيه هَتّافةٌ تَشْحُو وهَتّافُ (١)
حتى إذا ذرَّ قرنُ الشمسِ والتمعت   على رؤوسِ الروابى منه أسياف
عُجنا إلى أيْكةٍ شجراءَ سامِقَةٍ   لها مع الحرِّ إظلالٌ وإيراف
تواشجت وَسمت من كل ناحيةٍ   فإنما هى أسياجٌ وأسجاف
زِينت بشتى تماثيلٍ تلوحُ على   سيمائها من سماءِ الفن ألطاف
تكلمتْ عن أمورٍ وَهْىَ جامدةٌ   وصُوِّرت من صخورٍ وهى أطياف
مِن كلِّ عاريةٍ رَيّا وكاسيةٍ   إزارُها عن خفىِّ الحسنِ شفّاف
وما لبِسْنَ وما عرَّيْنَ عن بَشَرٍ   وإنما هُن إتحافٌ وإطراف (٢)
كأنها ونوافيرُ النمـــيرِ لها   من فوقِ أرْؤُسِها سَحّ وتَوْكاف
سِرْبٌ تجرّد من أثوابه فلهُ   فى غفلةِ الناسِ تَلعابٌ وتَطواف
ما بينَ حاملةٍ جاماً وصادِحَةٍ   غَنّاء فى يدها للشَدْوِ مِعزاف
وبين رافعةٍ مِصباحَها بيَدٍ   لها على الماء إطلالٌ وإشراف
وبين حاسرةٍ ريعت فنازَعها   لُبْسَ الخميصةِ إيجاسٌ وتَخواف
وبينهنّ كلابُ الصيدِ قد نَفَرت   وأطلقت أيدياً للوحشِ تَقتاف
وإذ تَلاقى بنا ذو صبوةٍ وَصِدٍ   إلى السُلافِ ومِتلافٌ ووَصّاف
قلنا : المُدامَ . فجاؤونا بمُذْهَبَةٍ   مذاقُها لِسَقيمِ القلبِ إخطاف (٣)
لم يبقَ منها وقد طالَ الزمانُ بها   فى الدَنِّ إلا شُفافاتٌ وأنزاف (٤)
سبيئةٌ سبقتْ نوحاً فكان لها
تحتَ العرائشِ قبل الشَرْبِ آلاف (٥)
يلوحُ منها قَوامٌ ثم تُدرِكُها   لطافةٌ فتَجَلّى وهى إشفاف
ما اعتادها لونُها الجادِىُّ عن عُرِضٍ
وإنما هو لونُ الشمسِ يَشتاف (٦)
كرَّ الربيعُ وضوءُ الشمسِ يُنضِجُها   فى كَرْمِها بعد ما غَذّته أرياف

(١) رفاف : لماع
(٢) ينشيك : نشوة ، والمستاف : المشم
(٣) الترويض : التشجير ، وشى مروض
(٤) فضاض الشىء ما تناثر منـه . البرس : القطن . المنداف : أداة الندف
(٥) السماء : كل ما علاك

(١) شحا الطائر : يشحو فتح فاه بالنغم
(٢) البشر : جمع بشرة وهى ظاهر الجلد
(٣) الاخطاف : البرء من العلة
(٤) الشفافات : جمع شـفافة ، والأنزاف : جمع نزفة ، وكلاهما بمعنى البقية الضئيلة
(٥) السبيئة : الخمرة المأخوذة بالمال . والشرب : جمع شارب
(٦) الجادى : الزعفرانى . يشتاف : يلتمع

ورَاقَ منظرُها إذ رقّ جوهرُها … فالحسنُ منها عن الاحسان كشّافُ
تَسمو إلى رأسِ حاسيها لخفتها … إذ لاتلائمُ ذاكَ الجرمَ أجوافُ
وتتركُ المُحتسِي نشوانَ لا نزقًا … وإنما هو إحصافٌ وإرهافُ
يُهدَى لحانوتها المعتسُّ فى غلسٍ … بريحها ولَوَ انّ البعدَ أفيافُ (١)
ويَستضىءُ بها فى السيرِ ملتمسٌ
ضلَّ السُّرى ولجنحِ الليلِ إغدافُ (٢)
نَشتفُّها ونناجيها ونرفُّها … ونجتلى قبسًا منها ونستافُ
ونملأ الرُّوحَ وحياً من معارجها … فإنما هى إيحاءٌ وإلطاف
فآيةٌ لبخيلٍ ذاقها كرمٌ … وآيةٌ لسحيلِ العزمِ إحصاف (٣)
صُبَّتْ فرقرقَها طبعٌ فشعشعها … مثلَ الضرامِ تعالَى منه أطراف
وثار ثائرُها حَميًا فهذّبه … حِلمُ النميرِ فقرّتْ منه أعطاف
حتى إذا ماغلا رأدُ الضحى ودنا … من شاطىء البحر فرّاطٌ وسُلّاف
أقلّنا ظهرُ طامٍ لا قرارَ له … وهل يقرُّ حرونٌ وهو رجّاف ؟
فى سابحٍ أسحمِ الدفّين منسرحٍ … يدافع الماءَ من حرفيه مجذاف (٤)
مُستوسِقٌ ظهرُه يَسعى على مهلٍ
من الوَنَى فهوَ تحتَ الوَسْق دلّاف (٥)
نظلُّ منه على سيساءِ منجردٍ … مالاقه قطُّ إسراجٌ وإيكاف (٦)
بينا يسير رويداً إذ تلاطمُه … موّارةٌ فاذا الإروادُ إعناف
طورًا يصوِّبنا غورٌ وآونةً … تعلو بنا منه أحقافٌ وأعراف (٧)
ما بين رافعةٍ علوًا وخافضةٍ … أهضامُها فى حُدُور الموج أنياف (٨)
وللعُبابِ زئيرٌ فى تدافعه … وزخرةٌ فهوَ بالأمواج غرّاف
له غواربُ لا تنفكُّ جائشةً
ما هبَّ من مُعصراتِ الريحِ زفزاف (٩)

(١) الأفياف : جمع فيفاء ، وهى الصحراء
(٢) الأغداف : الاسبال (٣) السحيل : الواهن
(٤) الدف : الجنب (٥) الونى : الأعياء ، والوسق : الحمل
(٦) السيساء : مستوى فقار الظهر . مالاقه : مالاءمه . الاسراج شد السرج ، والايكاف شد الاكاف وهو البردعة
(٧) الأعراف : المرتفعات
(٨) الأهضام المنخفضات ، وحدود الموج انحداره ، والأنياف الأعالى
(٩) الغوارب : الأثباج والسروات ، والمعصرات : الرياح تبعث السحاب ، وقد تلتهب ناراً ، والزفزاف : الريح الشديدة

وطافياتٌ تعالَى وهى مقبلةٌ … لها رؤوسٌ منيفاتٌ وأشعاف
يظنُّها من يراها وهى دانيةٌ … أبا قُبيسٍ له باليمِّ تزحاف (١)
فإن ترفقتِ الريحُ الهبوبُ به … فكلُّ حُسنٍ عليه ثمَّ عكّاف
تلوحُ فيه وضوءُ الشمسِ مُنعكسٌ … للعينِ أرباعُ أقراطٍ وأنصاف
كأنه لهبٌ يُذكَى به ذهبٌ … أو زئبقٌ بمذابِ الصُّفرِ مُنداف (٢)
قذفُ البحورِ لآلٍ دونها صدفٌ … ولُجُّهُ بلآلى الحورِ قذّاف
توائمٌ ينتظمن الشطَّ فى نسقٍ … مثل القلائدِ والطّلّاتُ أصداف
ماذا أعدت لنا الاسكندريةُ من … فتكٍ به لسليم القلب إزهاف ؟ (٣)
جيشاً من الحسن يغزونا وليس لنا … من دونه غيرَ حولِ الله تجفاف (٤)
مجراً جناحاهُ دُعجٌ بالعقول لها … فتكٌ ونُعجٌ لها فى القلب أزحاف (٥)
شاكي السلاحِ فمن آلاته مُقَلٌ … مُفوّقاتٌ وأعطافٌ وأرداف
فُرسانُه نُهّدٌ بالماءِ سابحةٌ
ورَجلُه ساحراتُ الطرفِ طُرّاف (٦)
أشباهُ ماءٍ على ماءٍ يكدن به … أن يمتزجن وللأبشار ترجاف
يطلُعن كالروضِ مطلولا تعارضُه … شمسُ الضحى فله فى العين ترّاف
عَرفٌ يفوحُ وأوضاحٌ تلوحُ وكم … فى الروضِ ألوانُ أوضاحٍ وأعراف
روضٌ يروقُك منه منظرٌ عجبٌ … لكنَّ مجناهُ أحساكٌ وأحشاف
والروضُ يقطفُك الأثمارَ يانعةً … وما لهنَّ سوى الإيحاشِ إقطاف
مُستهدفاتٌ وما فيهن من هدفٍ … وإنما هنَّ إسقامٌ وإدناف
ومُشفقاتٌ وما فيهن مُسعدةٌ … وإنما هنَّ للادمال إقراف (٧)
واهاً لنفسى وما واهٌ بنافعةٍ … إذا تحرّقَ أوّاهٌ وأفّافُ
هل هُنّ بؤسى وهُنَّ الحسنُ محتشدًا … أم هُنَّ نُعمَى ومافيهنَّ إنصاف ؟
فليس عنهنَّ سُلوانٌ لذى شغفٍ … ولا لهنَّ به ما عاش إيلاف

(١) أبو قبيس : جبل جنوب شرق مكة المكرمة ، وهو أحد الأخشبين
(٢) الصفر : النحاس ، والمنداف : الممتزج
(٣) الازهاف : الاقتراب من الهلاك
(٤) أعدت جيشا ، والتجفاف ، درع يكون للفارس والفرس
(٥) المجر : الجيش العظيم ، والدعج : السمر ، والنعج : البيض
(٦) الطراف : الذين يحاربون حول العسكر وهم اليوم يدعون حربهم حرب العصابات
(٧) الاقراف : قشر الجرح قبل أن يبرأ

حُسنٌ ومنعٌ وأشقى الناس متّصِلٌ   يلقاه حُسنٌ ولا يلقاهُ إتحاف
والمنعُ والماءُ نَزْرٌ لا احتجاجَ به   والمنعُ والماءُ طامى اللُّجِ إجحافُ
بل هُنَّ ماءٌ كآلٍ لا ارتواء به   يُبديه سهبٌ بعيدُ الوِرْدِ مِهياف (١)
يَظَلُّ وارِدُهُ صَدْيانَ مُحترِقاً   عقباهُ شَلٌّ إذا استسقى وإلهاف
أورت لظى كَبِدى منهنّ شامسةٌ   وحشيّةٌ وأيُها غدرٌ وإخلاف (٢)
جنيّةٌ وصالُها دَلٌّ ولمحتُها   تبلٌ وإعراضُها قتلٌ وإتلاف
بيضاء تختالُ مثلَ الشمسِ عاريةً   بل حسنُها فى مُتوع الشمسِ كسّاف
ألفاظها تُنعِشُ المُضْنَى ونظرتها   تُضنِى الصحيح فلا يُجْدِيه إسعاف
ضعيفة الأسرِ وسْنَى من بُلَهْنيةٍ   وفى خلابتها للأسرِ إضعاف
تُوحى الفتونَ بطرفيْها وفِعلِيهما   يصبى الرجالَ وهم من قبلُ أحناف
وَزْنُ الوفاءِ لها بالقِسطِ مُكتمِلٌ   وافٍ وميزانُها فى الحبِّ طَفّاف (٣)
تَفترُّ عن مبسِمٍ عذبٍ له أشَرٌ   يشفى أُوارَ الجوى منهن ترشاف (٤)
كأنه أقحُوانٌ بالندى خَضِلٌ   أو لؤلؤٌ مازَهُ فى السِّلكِ رصّاف (٥)
تزْهى بقدٍّ نضيرِ العودِ تَحسَبُه   غصناً ثنتهُ النُّعامَى فهو غيّاف (٦)
تهفو القلوبُ له وجداً إذا خطَرَت   كأنما هو بالأرواح هفّاف
غيسانةٌ عيشُها من نَعمةٍ وغِنًى   رِىٌّ وعيشى بها سُقْمٌ وإنحاف
أعزَّها أنها دانت لِعزَّتِها   هامٌ وذلّتْ لها فى الحبِّ آناف
وزاد من فتكِها خَلْقٌ لها عَمَمٌ   وحُسْنُ سَمتٍ له فى القلب إشعاف
أقرّ بالحسنِ ربّاتُ الدلالِ لها   طوعاً وهنّ معاصيرٌ وأنصاف (٧)
وألهجَ العاشقين المولعين بها   أنّ ابتسامتها للصبِّ أهناف (٨)
لاقيتُها وجَنانى جِدُّ منبسطٍ   وعُدتُ عنها ودمع العينِ ذرّاف

(١) الآل : السراب ، والسهب : الفلاة الواسعة ، والمهياف : التى يشتد فيها الظمأ
(٢) شامسة : نافرة ، والوأى : الميثاق
(٣) القسط : العدل ، والطفاف : المخسر
(٤) الأشر : تحزيز الانسان
(٥) الأقحوان البابونج وزهره أبيض يشبه الأسنان ، الخضل المبتل ، والسلك الخيط يسلك فيه الدر أى ينظم
(٦) النعامى : ريح شرقية رخاء والغياف المتمايل
(٧) المعاصير : جمع معصر وهى الفتاة فى سن العشرين ، والانصاف : جمع نصف وهى المرأة نيفت الأربعين
(٨) الأهناف : ابتسامة استخفاف و ... رية

وما رجعتُ ولكنى تراجعَ بى   يأسٌ فرُجعاىَ إقرانٌ وإرساف (١)
ولو بعمرى بها أحظى وقد عرضتْ   لكان بالعمرِ لى قُربَى وإزلاف
لكنّ بينى وبين المُشتهى جبلٌ   عالٍ ومهوًى سحيقُ الخرقِ نفناف (٢)
ولى حياءٌ عن العوراء يصدِفُ بى   ولى لسانٌ عن الفحشاء نكّاف
يُشْوِى وصالُ الغوانى كلُّ ذى أدبٍ   جمٍّ ويحظى به نَوْكَى وأجلاف (٣)
يحظى أخو الجهلِ لا يدرى بحُظْوتِه   وليس يحظى لبيبٌ وهو عرّاف
وشيمةُ الدهرِ لا تجرى على سَنَنٍ   وحالةُ الدهرِ إجراءٌ وإيقاف
فغارقٌ فى غِمارِ اليمِّ مُرتكِسٌ   وظامئٌ فى قِفارِ البيدِ عسّافُ
ما ساءنى أنّ غيرى حظُّه سِمَنٌ   من الزمانِ وحظى منه إعجاف
لى من زمانىَ فكرٌ راضهُ بصرٌ   وللبهائم أرواقٌ وأظلاف (٤)
قد يُرزَقُ الفَدْمُ مالاً وهو منخفِضٌ   ويُحرَمُ الندْسُ مالاً وهو نيّاف (٥)
وليس مِثلينِ ذو عِلمٍ وذو سفَهٍ   ولا شبيهينِ لألٌ وصداف (٦)

حبيب عوض الفيومى

(١) الاقران : الجر فى القرن وهو الحبل ، والارساف : مشى المقيد
(٢) الخرق : الأرض الواسعة ، والنفناف : فرجة ما بين السماء والأرض
(٣) يشوى : يخطىء ، والنوكى : الحمقى
(٤) الأرواق : القرون جمع روق ، والأظلاف للغنم كالحوافر للخيل جمع ظلف
(٥) الفدم : العي الثقيل ، والندس : اللبيب الفطن ، والنياف المرتفع
(٦) اللآل : بائع اللؤلؤ ، والصداف : صانع الصدف

القصص

قصة مصرية

الشيخ عبد الباسط يتزوج ...

للأستاذ محمد على غريب

بين الأزهر وبين القرية ، يولد طالب العلم كل يوم مرة على تجارب لم يشهدها وحياة لم يألفها ، فى تلك المدينة التى يختنق صوت المؤذن فيها بصيحات المعربدين الفجار ، والتى لو بعث فيها اليوم منشئها الأول جوهر الصقلى لما وجد فيها مكاناً يأوى اليه ، ولآثر عليها منادمة منكر ونكير . . .

ويوم غادر الشيخ عبد الباسط محمد حسين أبو جبل قريته الصغيرة لينتسب الى الأزهر ، كان أكثر أهله فى وداعه ، وقبيل أن يعلن القطار ضجره من الانتظار بصفيره المزعج ، انتحى به والده ناحية منعزلة وأوصاه بالصلاة والمذاكرة وطاعة شيوخه واحتقار ملذات الدنيا الفانية

ثم دس الوالد فى يد ولده خطاباً علت غلافه بصمات أصابعه المغمورة بالتراب ، وطلب منه أن يقدمه الى سيد القرية فى القاهرة وهو رجل من الأثرياء يملك أكثر أرض هذه البقعة وينظر اليه الأهلون كانسان لم يخلقوا على طرازه ، فلا بدع أن يتخذوا منه السيد والمولى ، وأن يخشوا غضبه كما يخشى العابد غضب الآله

وحل الشيخ عبد الباسط فى غرفة مظلمة فى حى الباطنية بالقرب من الأزهر ، وحل معه فيها خمسة من الطلاب ومجموعة من الهوام والحشرات كانت تشارك أهل هذا الكهف طعامهم وشرابهم ، وتخفف الدم النقى من جسومهم فلا يشعرون بالحاجة الى معصية الله . . .

ولم يكد يضع عبد الباسط رحله ، ويؤدى الصلاة المكتوبة ، ويستفسر من زملائه الذين سبقوه عن مواعيد الدراسة وعن كراء البيت حتى ذكر خطاب سيد والده الغنى ، فأخرجه من جيبه بوقار وخشوع وراح يسأل عن هذا العنوان :

— جاردن .. جا .. جار .. دن .. جاردن ستى .. أى عنوان هذا ؟ . . محمد بك الخربوطلى بجاردن ستى !

وتضاحك زملاؤه الخمسة من جهل صاحبهم بأحياء القاهرة وهم الذين يعرفونها حياً حياً . . وراودت النكتة اللفظية أحدهم عن نفسه فأطلقها :

— ستى والا ستك . . ها ها !

وضحك الجميع حتى الشيخ عبد الباسط عن طيب خاطر . .

***

يعيش محمد بك الخربوطلى فى منزل يضم فتياته الثلاث (صفية وحكمت وآمال) وكلهن جاوزن سن الزواج . ولما كان الأب فاجراً متهتكا فقد نسج فتياته على منواله ، لذلك وجدت كل واحدة منهن أصدقاء كثيرين ولكنها لم تجد زوجاً إلى اليوم

وكان محمد بك رجلاً فى حدود الخمسين ؛ وقد توفيت زوجته فى حادث مؤلم ، فراح ينسى الدنس الذى علق بشرفه بالافراط فى كل ما يستثير شهواته الخسيسة ، ولم يكن فى برنامجه أن يحتفل بتربية بناته بل تركهن فى أيدى الظروف

فى يوم من أيام الربيع الصافية ، وقف الشيخ عبد الباسط ومعه زملاؤه الخمسة الذين تطوعوا بتعريفه منزل السيد ، يصفق بيديه على باب المنزل ، ويمسح العرق المتصبب من جبينه بطرف جبته الخضراء ، على حين جلس زملاؤه فوق المقعد الخشبى الذى يجلس فوقه حارس الباب وهم يلهثون

وجاء البستانى العجوز وهو يبصق الشتائم والاهانات من فمه ، فقد أزعجه هذا الذى يصفق دون أن يسكت ، ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

قالها بلهجة حاكم متغطرس لخادم عنده . ولم يكن الشيخ عبد الباسط يتوقع هذه الخشونة ، أمام زملائه على الأقل ، فأخفى خجله فى سعاله وسلم إلى البستانى خطاب والده إلى سعادة البك ..

وعاد البستانى يقول له باللهجة الأولى :

— أدخل . . .

ثم ضرب البستانى الباب الحديدى وراءه بعنف وغضب . فدخل الشيخ عبد الباسط وقلبه يتراكض بين جنبيه ؛ ثم اقتيد الى حجرة بهره فيها أثاثها الفخم مما لم ير مثله إلا فى الحوانيت التى قاده للفرجة عليها زملاؤه . فأدرك لفوره فى أى طريق ينفق سيد القرية أمواله . .

وشهد فى الحجرة وسادة ملقاة على الأرض فرام الجلوس فوقها ، بيد أن الخادم الطيب أنهضه ليجلس على مقعد مريح . وهنا ابتسم الشيخ عبد الباسط على رغم أنفه . . ابتسم لأنه لم يكن يقدر على البكاء ...

***

وبينما هو يجول ببصره فيما أثبت على الجدار من صور وما حشد فى الحجرة من نفائس ، إذا بصوت ناعم يصل إلى أذنيه ، وإذا بفتاة هيفاء تدخل إلى الحجرة وهى تغنى ، فلما رأت الشيخ الجالس أمامها تظاهرت بالفزع وصاحت :

— بردون يا ... يا أستاذ ! ثم واصلت الغناء ...

وجاء الخادم يشرح للفتاة من يكون هذا الشيخ ؟ إنه نجل وكيل والدها فى ضيعته ، وقد جاء إلى القاهرة ليطلب العلم فأرسله أبوه إلى سيده ليشمله برعايته ...

وتلطفت الفتاة وصوبت بصرها إلى هـذا المخلوق ، فاذا هو شاب ممتلىء الجسم فى لحية قصيرة كأنما صنعها بيديه . أما ذلك المخلوق فلم يكن يدرى أحد ماذا يعتلج فى ذهنه من الخواطر ، وقد غمره الموقف الشاذ بفيض من البلاهة ، ففغر فمه وبقى فى صمته الجليل ، وقد غض الطرف وذكر نصيحة والده له فلم يخالس الفتاة النظر سوى مرتين

وجاء السيد فى جلباب حريرى أزرق ، فنهض الشيخ عبد الباسط وقبل يده ثلاث مرات كما يصنع مع شيخه فى الدرس ، ثم وقف صامتاً وقد أنساه الشيطان الكلمات الفخمة التى زورها ليلقى بها فى هذا المقام

وقال السيد وهو يعبث بلفافة تبغ فى أصابعه :

— كيف والدك ؟ . . . هل بعث معك مالاً ؟ . . كيف أنت ؟ . . اجلس . . هل تدخن ؟ ...

وماتت الاجابة على هذه الأسئلة كلها فوق شفتى الشيخ عبد الباسط فلم ينطق وإن كان قد جلس على حافة المقعد ورقبته ممتدة ويده العابثة بلحيته ترتعش

وجاءت القهوة ، فشرب نصف ما فى الفنجانة ، وضمخ بالنصف الآخر ثيابه من الدهشة والخوف . ومرت به الفتاة التى رآها حينذاك وهى تغنى ، فربكه مرآها واختل توازنه فوق حافة المقعد وهوى على الأرض ؛ ومن ثم ضحك السيد والفتاة والخادم الواقف بقرب الباب ... وضحك الشيخ عبد الباسط أيضا !

***

وكثر تردد الشيخ عبد الباسط على منزل السيد ، وفى المرات الأولى كان ظله ثقيلاً على نفوس أهـل المنزل ؛ فلما كشف عن سذاجته وألح فى الزيارة استطابوا وجوده . وكان فى كل يوم يكشف عن أسماء النفائس التى يراها فى المنزل فيحفظها كما يحفظ ألفية ابن مالك ؛ ولم يكن يبالى السخرية به والتهكم عليه ، فان العبد وما ملكت يده لسيده ؛ وكان يؤثر على الجميع الفتاة التى تغنى ، وكانت هى من جانبها تزيد فى الاساءة اليه فيحسب أن يده تقبض على قلبها

ولم يعد الشيخ عبد الباسط يحتفل بدروسه ، لا ولا بصلواته . أما زملاؤه فقد أنكروا عليه هذا الاهمال ، وتوعـدوه بالخزى فى الدنيا والآخرة . غير أنه كان يتمثل فى وجوههم شقوة البؤس ، فلم يعبأ حتى بأن يدفع نصائحهم عنه بطرف أصبعه

وانقلب الشيخ عبد الباسط فجأة الى متظرف يطالع الصحف ويغشى المقاهى ويتهكم بشيوخه الأعلام ، حتى زجاجة العطر التى لمحها فى أحد الحوانيت ظل يقتصد ثمنها واشتراها ، والساعة والمنديل الحريرى والحذاء اللامع . . . كان ذلك كله فى سبيل أن يحوز رضاء تلك الفتاة اللعوب التى لا تعرف من الدنيا سوى الغناء

وكان الشيخ عبد الباسط يرى فى منزل السيد كل مرة أصنافا من الشبان يفدون على الدار فى أزياء خليعة ، حاسرى

الرؤوس حليق اللحى والشوارب ، وكان يسأل الخدم عنهم واحداً فواحداً ، ويعرف أنهم أصدقاء الأسرة فيسكت ، ويكلفه سكوته هذا لعنة أولئك الشبان في سره وذلك أضعف الأيمان

ولم يكن الشيخ عبد الباسط يجترىء على التفكير في هذه الدنيا العجيبة التي يضمها منزل السيد ، وإن كان قد فكر مراراً في أنه أصبح مطلوبا ومرغوبا فيه

ألم يقل له محمد بك ذات يوم :

— حصلت البركة يا أستاذ !

كلمة لا يقولها السيد إلا لمن يحبه ويوده . ألم تصارحه الفتاة التي تغنى ذات مساء بأن دمه خفيف . ثم ضربته بيدها على وجهه ، وضرب الحبيب مثل أكل الزبيب !

ترى هل حان الوقت الذي يصارحهم فيه بما تضطرم به نفسه من رغبات !

* * *

وجاء ذلك الوقت فلم يفاجىء الشيخ عبد الباسط برغبته رب الأسرة ، لأنه كان رغم كل شيء يتهيب ويخجل . وكانت رغبته أن يتزوج بتلك الفتاة التي تغنى دائما والتي لم يعرف اسمها بعد . وكثيرا ما تمثل هذا البدن الناعم البديع واستعاد ذكريات امسه السعيد ، فيسمعه زملاؤه في الغرفة يئن ويصرخ من هول ما يعتمل في صدره . . .

لم يقدر الفوارق الهائلة بينه وبينها ، ولا راعى مركزه كطالب علم فقير ، ولكنه أقنع نفسه بأن كل شيء يسوى بنفسه ، والمصادفات قد تكون في بعض الأحايين سبباً في أن يرتفع المرء من الغرفة الحقيرة الى القصر المنيف

وبعد تفكير طويل أودع الشيخ عبد الباسط سره الخطير لدى أحد الخدم في المنزل ، فتضاحك الخادم وسكت ، وكان في سكوته ما حمل الشيخ عبد الباسط على أن يتأول ويستولد عدم استحالة الوصول إلى مبتغاه

والظاهر أن الخادم أفضى إلى الفتيات بما قال الشيخ ، ولا ريب أنهن تضاحكن وعبثن بالفتاة التي وقع عليها اختياره ، ثم انقلب الموضوع إلى فكرة ضخمة . لذلك استقبل الشيخ عبد الباسط في اليوم التالي استقبالاً فخما ، وكأنما كان يتوقع ذلك فراح يفرض وجوده في المجلس ويصعر خده للجالسين والجالسات . . .

واقترب يوم الزواج ولم يكلف الشيخ عبد الباسط أن يدفع شيئاً وزاد أهل المنزل في الحفاوة به والترحيب فكان الذي يشغله أنه يتزوج ووالده لا يعلم ، ولكن ماذا يهم والفتاة جميلة ووالدها سيد القرية . .

وفي اليوم الموعود كان رب المنزل غائباً ، ومن الانصاف أن نقول إنه لا يعرف عن هذا الموضوع شيئاً ؛ غير أن الشيخ عبد الباسط لم يكن يهمه ذلك ، فقد آمن بأن الرجل يعلم دون شك ولم يفاتحه في الأمر حتى لا يسيء الى ذات نفسه ويخجله

وأنيرت الدار وأقبل المدعوون ، ولم يجرؤ الشيخ عبد الباسط على دعوة زملائه حتى لا يفسدوا عليه خياله ، واكتفى بأن زاد في الأناقة وفي التجمل ، وراح يحفظ قصائد الغزل كلها ليسكب بها في أذن عروسه الحسناء . .

وتم عقد الزواج على يد مأذون حليق اللحية والشارب وإن كان يرتدي جبة وعمامة ، وكان هناك مغن يترنم بصوته والمدعوون من كل صنف يقصفون ويلهون . .

واقترح أحدهم على الشيخ عبد الباسط أن يشرب قدحاً قدمه اليه فلم يستسغ طعمه ، ثم أعطاه قدحاً آخر وقدحاً ثالثاً . . والجمع الصاخب يطلق الضحكات المخمورة من عقالها وهو ذاهل لا يعرف رأسه من قدميه . .

وأفردت له ولعروسه حجرة خاصة في المنزل الفخم ، ولما أحس دوارا في رأسه انكفأ إلى حجرته وهبط إلى الفراش لا يقوى على النظر ثم أدركه النوم العميق . .

وفي الصباح وجد إلى جانبه عروسا من الخشب . . والجمع الحاشد يغمر حجرة نومه بالضحك ، ثم تكشفت له الحيلة شيئاً فشيئاً حتى عرف كل شيء . . .

عرف أن المأذون شاب من أصدقاء أهل الدار استعار جبته وعمامته من فقيه المنزل ، وعرف أنه شرب في الأقداح الثلاثة خمرا حرمها الله ؛ وأخيراً عرف أن عروسه من الخشب وليس لها طاقة على الغناء !

محمد علي غريب

مأساة من سوفوكليس

أنتيجـــونى

للأستاذ دريني خشبة

سوفوكليس : ولد سوفوكليس سنة ٤٩٦ ق . م ، ومات سنة ٤٠٦ أى أنه عاش عمرا طويلا مباركا قضى منه أكثر من ٦٥ سنة فى إنتاج أدبى متصـل . ولم يصلنا من مآسيه التى أربت على المائة غير سبع فقط إحداها مأساة اليوم (أنتيجونى) ، التى تعتبر أطرف تحفة فى الأدب الكلاسيكى المسرحى . وسوفوكليس هو تلميـذ إسخيلوس ، وقد ظل يقلده ويمشى على دربه أكثر من عشرين عاما ثم استقل بعدها بخطته وطرائقه فى الأدب ، ولكنه عاد فقلد منافسه الأكبر يوربيدز . ولم يحدث سوفوكليس ثورة ما فى روح الرواية المسرحية ولكنه ثار بالمسرح نفسه من الوجهة الشكلية (التكنيكية) فأكثر من الممثلين وعدد من المناظر وقلل من أهمية الخورس ، وقد ساعدته ثروته وعيشته الراغدة على تغذية المسرح برواياته الهادئة التى كان يخدم بها الفن من حيث هو فن خالص ، ولا يبتغى بها ثورة على التقاليد أو إحداث تغيير فى نظم الحياة . وكان مؤدبا مع الآلهة ، فلم يصنع ماصنعه إسخيلوس مع ربات الذعر حين سفه منطقهن فى محاكمة أورست مثلا . وسوفوكليس هو أستاذ شاكسبير من حيث تركيز البطولة فى أكثر مآسيه فى المرأة وسترى ذلك فيما نلخصه لك من المآسى . ولم يتقيد سوفوكليس بالدرامة الثلاثية Trilogy مثل أستاذه ، ولكنه فضل المأساة المستقلة الواحدة وإن كان قد كتب ثلاث مآس فى موضوع واحد متصل ، فانه كان يجعل كلا من أجزاء هذا الموضوع فصلا مستقلا بنفسه كل الاستقلال عن الفصلين الآخرين ، وقد تعلم سوفوكليس الموسيقى فى صغره وحذقها وترأس فرقة موسيقية فى الاحتفال بذكرى « سلاميس » وكان على قسط كبير من الجمال فى صباه ، وكانت أدوار النساء فى بعض الدرامات — ومنها دراماته — توكل اليه لتأديتها لهذا السبب . ولم يشترك فى حروب وطنه (أثينا) لاعتباره من كبار الأعيان ولأنه كان صاحب مصانع الأسلحة التى تزود الجيوش بكل ما تحتاج من عتاد . وقد تورط بسبب حياة الترف التى كان يحياها فى غرام آثم كلفه كثيرا من ماله ، فاضطر ابنه الى مقاضاته وطلب من المحلفين الحجر عليه ، ولكن سوفوكليس عرف كيف يدافع عن نفسه حتى برئت ساحته ، ثم استقام بعد ذلك . وقد فاز سوفوكليس على إسخيلوس للمرة الأولى سنة ٤٦٨ بدرامته المفقودة (تريبتوليموس) ثم فاز فى عشرين مباراة بعد ذلك وعين سنة ٤٤٠ أميرالا للاسطول (وإن لم يخض حربا ما) ، وعين سنة ٤٤٣ عضواً فى مجلس الوكلاء (مجلس العشرة) وبحسبه أن يكون أقوى شخصية تمثل عصر بركليس بطوله . ومات قبل أن يشهد سقوط أثينا

— ١ —

حينما اكتشف أوديبوس السر الهائل ، وعرف أنه قتل أباه وتزوج من أمه ، وأولدها ولديه وابنتيه ، جن جنونه ، وسمل عينيه ، وهام على وجهه فى الأرض حيران ، وتبعته ابنته التاعسة أنتيجونى ، لتهديه سبيله الى غابة كولونوس ، حيث غالته ربات الذعر بما لم تجن يداه !

وعادت أنتيجونى لتجد أخويها يقتتلان من أجل العرش . . . (١)

وقتل الاخوان المتحاربان كل بيد الآخر فى مبارزة مشئومة

واستوى كريون على عرش طيبة ، وأصدر أمرين كل منهما نقيض الآخر

أمر بأن تحتفل طيبة كلها بملكها السابق إتيوكليز ... أمر أخوه ... أما بولينسيز ... فيترك فى بطحاء طيبة جزر السباع تنوشه جوارح الطير وكلاب البرية ، من غير أن تقام له الشعائر الدينية التى تقام لعباد الآلهة المؤمنين ، ومن غير أن يضم رفاته قبر ، أو يحثى عليها تراب ! وقضى أن كل من يجرؤ على مخالفة هذا الأمر فجزاؤه القتل فى أبشع صورة . والتنكيل والتمثيل !

— ٢ —

« أنتيجونى وأختها إسمنيه أمام القصر الملكى بطيبه »

— « أختاه ! إسمنيه ! أهكذا قضت السماء أن نتجرع . أنا وأنت ثمالة الكأس ، والنطف الأخيرة من آلام أوديبوس ! ألا حدثنى يا أختاه : هل بلغك الامر المأفون الذى أصدره كريون الملك بخصوص أخوينا ؟ ؟ »

— « أى أمر يا أختاه ! »

— « لهذا جئت معك الى هنا كيلا يسمع نجوانا أحد ! »

— « إذن . . . تكلمى ! إن نظراتك المضطربة تشف أنبا هائلة ! »

— « لماذا يُفَرّق كريون بين الموتى فى حقوق السماء المقدسة ؟ لقد أمر أن تحتفل طيبة بأسرها بجناز إتيوكليز . . . فى حين تترك جثة بولينيسيز فى عراء طيبة لجوارح الطير ، وسباع البرية ، من دون ما دفن ولا إقام شعائر ... حتى التراب ... لقد أبى أن يُحثَى عليه التراب يا أختاه ! والآن ! لقد أنبأتك بكل شىء ! فهل تبرهنين على كرم أرومتك ! وشريف عنصرك ، فتعاوننى فيما اعتزمت ، أم ...

(١) لخصنا هذه الحوادث فى إسخيلوس (الأعـداد الأخيرة السابقة من الرسالة) .

وا شؤماه ! وهل بيد ضعيفة مثلي حل أو ربط ؟ ! ما ذا تريننى أصنع ؟

— « ألا تقاسميننى حلو هذا الأمر ومره ؟

— « ما ذا تعنين ؟

— « نتقاسم ، أنا وأنت ، فنذهب الى أخينا من فورنا هذا فندفنه ؟ ! . .

— « ندفنه على الرغم من نذير الملك ؟ أهذا رأيك ؟

— « إى وايم السماء ! سأدفن أخى وأخاك فاما امتنعت فانى لن أنكص ، ولن أخون إخوتى وحنانى وكبريائى ودمى ! !

— « مجنونة ! ! وكريون ! أما تبالين أوامره ! »

— « كريون ؟ ! وهل له الحق فى منعى من القيام بشعائر دينى نحو أخى ؟ ! »

— « أختاه ! أنتيجونى ! قليلاً من الحكمة يا أختاه ! أذكرى كيف كانت نهاية أبوينا العزيزين ! أذكرى كيف شنقت أمنا نفسها حين علمت أن زوجها هو ابنها ؟ واذكرى كيف سمل أبونا عينيه وذهب معك إلى كولونوس ليتحسى كأس المنون ! واذكرى أيضاً كيف اقتتل أخوانا وقتل كل منهما الآخر ! أفلم يبق وراء كل أولئك إلا أن نلقى بأيدينا أنا وأنت إلى التهلكة ؟ ! أما عن نفسى ، فانى أفضل الخضوع لأمر ولى الأمر ، فانى امرأة ولم تخلق النساء لمشاكسة الرجال !

— « إذن ... فلن أرغمك على شيء ... وحسب هذه اليد الكريمة أن تقوم بالأمر كله وحدها ! يا للفخر أن أضطلع بكل شيء ثم أموت ! كم تشيع الكبرياء فى نفسى حين ألقى أخى فى الدار الآخرة وقد أديت له هذا الحق بمفردى ؟ ! إن هذه الحياة لابد أن تنتهى ، فلم لا تكون نهايتها هذه الجريمة المقدسة ؟ أنت تأبين أن تزدرى قوانين الأرض ، ولكنك لا ترفضين أن تحتقرى مع كريون شرائع السماء ! فهنيئاً لك ! يهنيك ما اخترت لنفسك يا أختاه !

— « أنا لا أزدرى ولا أحتقر ، ولكن أخشى ثورة الأولياء !

— « كأنى بك تعتذرين عن جبانتك ! اطمئنى ! سأذهب وحدى لأدفن جثمان أخى !

— « يا للآلهة ! كم أخشى عليك !

— « لا تضيعى خشيتك ومخاوفك عبثاً ! عليك نفسك !

— « إذن لا تبوحى بسرك لأحد ، وسأكتم أنا الأخرى كل شيء !

— « بورك فيك ! بل تحدثى به لكل من يلقاك . . . للناس أجمعين !

— « أنت تتحدين خصومك ! يا للطيش !

— « تحد يسر قوماً آخرين . . .

— « هذا إذا نجح قصدك ، وتم تدبيرك ... على أننى أراك تضربين على غير هدى »

— « حسناً ! سأحاول ، فاذا فشلت فقد أديت واجبى »

— « بل ينبغى ألا يحاول الانسان المحال »

— « ها . ها ... إن كلامك جدير باحتقارى بقدر ما هو خليق بمقت أخيك . . . اصمتى ! على وحدى وزر ما أنا قادمة عليه . . . ولن يحرمنى القضاء من موتة شريفة خالدة ! »

— « لتذهبى ! إنه يبدو لى أن لا سبيل للوقوف بسبيلك ، ياطائشة ! وإن تكن جراءتك آية وفائك وبرهان محبتك ...

(تخرج كل منهما من ناحية)

— ٣ —

ويقبل الخورس (عجائز طيبة) فينشدون ويهزجون ، ويتغنون آلام طيبة ذات سبعة الأبواب وأشجانها ، ويرددون ألحان المأساة الباكية . . . مأساة أوديب ، ثم يلمح رئيسهم كريون ، ملك طيبة وطاغيتها ، مقبلا ، فيصمت ويصمتون

(يدخل كريون)

— « أيها الأصدقاء ! إخوانى أبناء طيبة الأخيار ! إصغوا إلى ! لقد تمت المأساة ، وانقرض الذكران من نسل لايوس ، وبالأمس ما ضرجوا ثرى الوطن بدماء لا ترضى الآلهة إهراقها ، وها قد آلت السلطة إلى ، سلطة الحكم ، وسلطان الملك ، وسلطان الملك محك الرجال ؟ وإنى آخذ فيكم بخطة هى الى خيركم أقرب ، وعلى وطنكم أجدى ؛ لا أحب الجبان ، ولا أوقر رجلا يؤثر صالحه أو صالح أصدقائه على صالح الوطن . . . الوطن سفينة الجميع ، فيجب على الجميع هدايته الى شاطىء الأمان ، ويجب أن تزيد دائماً فى عظمة طيبة وعنفوانها ومجدها ! ولقد علمتم ما كان من ولدى أوديبوس ، وعرفتم كيف كان إيتوكليز يفدى بنفسه بلاده ، ويرد عنها جحافل الأعداء الذين جردهم عليها بولينيسز . . . الخائن ! الذى أشقى أمته وأهان دولته وكان عليها

من هنا ومن هناك

إبسن وأرنولد بنت

كتبنا هنا كلمة عن أثر إبسن فى إحياء الدرامة فى الأقطار الأوربية عامة وانجلترا خاصة ، وأشرنا إلى العلاقة بين إبسن وبين صمويل بطلر صاحب قصة (طريق اللحم) وبين بطلر وبرنردشو وهم جميعاً من أنصار المرأة الذين وقفوا جهود الجبابرة للدفاع عن قضيتها والنضال فى سبيلها لتحصل على أوفر قسط من الحرية التى ما تزال – تحت ضغط التقاليد – محرومة منها إلى اليوم . وقد كنا نقرأ درامة القصصى الانجليزى الطائر الصيت أرنولد بنت Bennett المسماة (مباراة الحب) The Match of Love فراعنا أن نجد هذا الكاتب العبقرى يحاول محاولة صادقة أن يتمم جهود إبسن ! !

والمعروف أن إبسن كان يعرض فى دراماته لعلل هذا العالم فيشخصها ويعرضها للنظارة ، ولكنه يتركها دون أن يصف لها علاجا ، وأحسن مثال لذلك درامتــه (بيت عروس) The Doll's House التى يعرض فيها حياة الفتاة نورا وما تورطت فيه من غرام بشخص غنى حاولت أن تحصل منه – بسبيل هذا الغرام – على مبلغ من المال يستعين به زوجها المريض على السفر الى الجنوب للاستشفاء مما به من مرض ... ولكن زوجها يكتشف علاقتها بذلك الرجل الغنى فيعاتبها ... ولكنها تثور وتتهمه أنه هو سبب هذا السلوك الذى آلمه منها ، وأنه لم يحسن تكييفها حتى تكون ربة منزل ، وأنها لا بد تاركته لتدرس الدنيا والحياة من جديد ، لأنها ترفض أن تظل الى الأبد (دمية أو لعبة) فى المنزل ، تأكل الشوكولاته ، وتغشى صالات الرقص ، وتقتنى الأزهار ، وهى لا تعرف من الشؤون المنزلية كثيراً أو قليلاً ... فاذا سألها زوجها ولمن تترك تربية الأطفال أبناءها ؟ أجابته إنها تتركهم له أو أنها لا تدرى ... وكيف تربيهم وهى لم تترب ؟ أليس أولى أن تتربى هى أولا ؟ !

وعند هذا تنتهى الدرامة وتنزل الستار !! وبذلك لم يصف لنا إبسن كيف تعالج نورا ؟ أو الى أين تذهب لتحصل على القسط الذى يعوزها من التربية . لذلك راعنا من أرنولد بنت محاولته معالجة هذه الزوجة التى تغرم بأكل الشوكولاته وتولع بالمراقص والمسارح ودور الصور والصالات ، ولا تعرف من أمور منزلها أى شىء حتى ولا كيف تسوس الخدم ! ! وتتلخص درامة بنت فى أن نينا الممثلة البارعة وزوجة مدير مسرح الملك جورج بلندن قد أحبها (روس) أحد كبار الأغنياء الانجليز ، وقد حدث أن أشرف الزوج – مدير المسرح – على الافلاس ، فاضطر لأن يذهب إلى (روس) ليقترض منه بضعة آلاف من الجنيهات يصلح بها مالية مسرحه ويحفظه بها من الأغلاق . . وتكون نينا عند روس فى هذه الآونة تساقيه كؤوس الغرام فما يكادان يعلمان بقدومه حتى يصلحا من شأنهما ويتأهبا للقائه ، ويعده روس خيراً وينصرف على ميعاد آخر ، فاذا حان هـذا الميعاد أقبل الزوج وكله أمل أنه قابض الآلاف التى

شجناً من أشجان الزمان ! من أجل ذلك صدرت إرادتنا أيها الأصدقاء بأن تحتفل طيبة بملكها الراحل احتفالاً يليق بتضحياته العزيزة ، وأن تمشى الأمة بأسرها فى إثره الى مقره الأخير ، حيث يذرف كل منا عبرة على جدثه الى الأبد قربان المحبة ورمز الاعزاز ! أما بولينيسز ! فسينبذ بالعراء فتمزقه الكلاب وتغتذى به جوارح الطير . والويلُ كل الويل لمن تحدثه نفسه بدفنه ، أو حثو التراب عليه . . . وسنجزى الظالمين ! ! »

رئيس المنشدين : « كلمتك قانون على الأحياء ، وشريعة من السماء ، أيها الملك العظيم !

– « إذن . فلتكن طيبة كلها عيونا ساهرة على تنفيذ أمرنا ! »

(لها بقية) دريني خشبة

يبتغيها ، وتـكون نينا فى هذه المرة أيضاً بين ذراعى روس ، فاذا دق الجرس وعلم روس أنه هو ، خبأ نينا فى مخدعه ولقى الزوج ... ولـكن ثورة من الشرف والـكرامة تتفجر فى قلب روس فيصارح الزوج بعلاقته الغرامية بزوجته ، وتخرج الزوجة صعقة ، ويغادر الزوج المنزل ليطلق زوجته ، ويتمالك روس قواه ويتناول التليفون فيخاطب أحد أصدقائه أصحاب الملايين فى إقراض مدير المسرح بضعة آلاف من الجنيهات على أن تحتسب على روس بشرط ألا يعلم مدير المسرح . ويتزوج روس من حبيبته ... ثم يبدأ الدرس القاسى الذى يصلح به سلوكها ويخلق منها زوجـة مدبرة وربة منزل بكل ما تحمل الـكلمة من معان ؛ وذلك بعد أن تسوءه منها بعض التصرفات التى تدل على طيش النساء اللائى لم يحصلن على أية ثقافة منزلية

يدعى روس أنه جازف فى عمل تجارى ولـكنه جر عليـه الافلاس ، وأنه مضطر لأن يبيع كل شىء . . . منزله وضـياعه وعرباته وكثيراً من ملابسـه وأثاثه ليسدد ديونه . . . ولـكنه يلقى من نينا كل عطف وتضحية ، فانها بدلاً من أن تتركه لتلوذ بغيره من الموسرين ، تقدم له كل حليها وجواهرها التى تسوى آلافاً كثيرة ... فيسير روس فى درسه ... وينتقل إلى (شقة) حقيرة فى منزل قذر ليعيش فيه عيشة الـكفاف ، فلا تأبى نينا أن تقاسمه صرامة هذا العيش ، بل تقوم هى على حاجيات المنزل فتحسن تدبيرها كل الاحسان .. ويكون اليوم السابع والعشرون من الشهر ويحضر محصل (البلدية) من أجل ثمن الغاز فلا يكون مع نينا إلا أربعة بنسات ونصف فينذرها المحصل بقطع التيار إن لم يسدد المبلغ (باكر !) ويحضر روس فتطلب إليـه قليلاً من النقود لهذا الغرض فيثور بها ويتهمها أنها غير مدبرة وأنها مسرفة كل الاسراف ، ويطلب إليها أن تطلعه على (كشف بالمصاريف الشهرية) فتدهش نينا لهذا الطلب ، ولـكن روس يداعبها ويطلب منها أن ترتدى أحسن ملابسها لزيارة (المتحف البريطانى ؟ !) ولـكنها تـكاد تجن لأنها لم تعتد زيارة هذه الأماكن الجدبة ... وتأتى أختها آن لزيارتها فيتركهما روس وينصرف ... وتعجب آن لقذارة (الشقة) وتسأل أختها لم تسكن هى وزوجها فى مثل هذا الحي الوضيع مع أنه قد أصبح أغنى رجل فى انجلترا ؟

وتضحك نينا وتقول بل إنه أفقر رجل فى انجلترا لأنه أفلس وباع كل ما يملك ليسدد ديونه ؟ ! وتدهش آن وتؤكد لها أن روس قد ربح أمس فقط من صفقة البن البرازيلى سبعة ملايين من الجنيهات ، وأنه لا بد قد تعمد أن يلقنها هـذا الدرس فى الاقتصاد والتدبير المنزلى تعمدا ... وتفطن نينا للسر فتثور وتذهب من فورها إلى روس فى محل عمله الذى كان قد أخبرها أنه أغلقه فتجده غارقاً فى أعمال لا حصر لها وتتأكد من صدق ما أخبرتها به آن ... ويعود الجميع إلى قصرهم القديم حيث تجد نينا كل الخدم وكل الخير القديم كما كان ... فتعاتب روس الذى يذهب بها إلى (دولاب) مجوهراتها فتجدها سليمة لم تبع ! ! ويعيشان عيشة راغدة جديدة ولـكن عيشة كلها جد وعمل ! !

وقد لمحنا أثر إبسن فى أرنولد بنت واضحاً لأنه ذكر (عروس بيت) غير مرة فى ثنايا الدرامة فـكأنه كان يقول (أنا أتمم جهود إبسن ! !)

أوجست سترندبرج

وما دمنا قد تحدثنا هذا الحديث عن إبسن النرويجى العظيم فلا بأس من ايراد شىء عن منافسه السويدى الـكبير أوجست سترندبرج الذى كان يهزأ بتعاليم إبسن ويسخط على دفاعه عنها ويعتـبر دراماته ضرباً من الجنون والحماقة يجب عرضه فى مستشفيات المجاذيب بدل عرضه فى المسارح .. والسر فى كراهية سترندبرج للمرأة هو نفس السر الذى جعـل الأديب اليونانى الـكبير يوربيدز ألد أعدائها منذ أربعـة وعشرين قرنا ، فلقد تزوج كل منهما وفشل فى زواجه ثلاث مرات وكانت زوجاتهما هن اللائى طلبن الطلاق وعملن له حتى حصلن عليه ، وبذا كانت نظرة كل من الأديبين الـكبيرين للمرأة نظرة سـوداء كلها شؤم وكلها موجدة ، وقد وجد يوربيدز من ينتقم منه للمرأة بعد موته وكان ذلك هو أرسطوفان الروائى الفكاهى الخبيث الذى وضع معظم دراماته فى الطعن على يوربيدز والتشهير به وبآرائه . أما سترندبرج فقد مات ولم يشعر به أحد ، لأن إبسن كان يدعو الى تحرير المرأة دعوة حارة صادقة استجابت لها أوربا بأسرها ، وبدأ العالم كله يستجيب لها حتى فى مجاهل آسيا وأواسط أفريقيا المظلمة

ولد إبسن سنة ١٨٢٨ فى بلدة سكين فى جنوب النرويج ومات سنة ١٩٠٦

وولد سترندبرج فى ستوكهلم سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩١٢

هزيمة غاندى وانتصار طاغور

انهزم غاندى ، وأسدل الستار على الفصل الأخير من درامة المهاتما ، ولو قد مات غاندى فى إبان مقاومته لانجلترا فى حركة العصيان المدنى لاعتبره المؤرخون لغزاً كما لو كان نابليون قد مات بعد يينا أوتيلست ... ولكن القدر الساخر يأبى إلا أن يلطخ البطولة ويفضحها ... وذلك بطول العمر !! والحقيقة أن طاغور لم يكن يوماً من الأيام راضياً عن وسائل غاندى ، وكان يتهمه بالتهريج والشعوذة كلما رآه يجذ كهانات الهند ويدمج عقليته فى صميم عقلية الجماهير . وكانت غضبة طاغور على المهاتما شديدة قاسية سنة الزلزال المشهور الذى خسف جانباً من الأرض ، لأن غاندى عزا الزلزال إلى سخط الآله وغضبه ولم يعزه إلى أسبابه الجغرافية التى يتعلمها صغار التلاميذ فى المدارس . ويبدو أن لقب مهاتما أثر أثراً سيئاً فى روح غاندى ، وملأه بشعور النبوة إن لم يكن الألوهيــة ، ودليل ذلك ادعاءه غير مرة أنه يصوم بأمر الآله ... وأنه لم يفعل كذا إلا بعد أن سمع صوت الآله يناديه ويناشده . وقد كانت أول هزيمة غاندى فى تجرده من زعامته السياسية وتفرغه للزعامة الاجتماعية ... وبذا فقد الزعامتين جميعاً ، مع أن كثيرين حبذوا تصرف غاندى أول الأمر ولاسيما بعد أن أعلن أنه سيفرد جهاده لخير المنبوذين ... ولكنه ، ويا للأسف ، أراد من المنبوذين أن يطيعوا الشرائع ويؤدوا ما فرضت عليهم ... أى أنه لم يحللهم من مبادئ النجاسة ... ثم غلا هو فى امتثاله أوامر دينه فلم يبرح يقدس البقرة ويتبرك بروثها ويتطهر ببولها ... وذلك ما عيّره به ابنه الذى هداه الله إلى الاسلام أخيراً ... والحقيقة أن سلوك غاندى الأخير لا يطاق ، بل كان سبباً فى ثورة الشباب ضده ، وتألبهم عليه ، واعتبارهم إياه سبب ضعف الهند وخضوعها

وفى هزيمة غاندى انتصار لطاغور من غير ريب ... رابندرانات طاغور شاعر الهند وأديبها الأشهر وفنانها العظيم ... الرجل الذى خدم الهند بشهرته العالية فى دولة الآداب أكثر مما خدمها غاندى بسياسته العقيمة وأساليبه الرجعية الواهية

لقد كان طاغور يمقت من غاندى عداءه للجسم وتوهينه له وتهريجه بروح على حسابه ، وكان يرى أن الجسم نصف الانسان والروح نصفه الآخر ، وأنه ينبغى أن يعنى بهما بمقدار واحد ، لا أن نوهن أحدهما على حساب الآخر ، فليس روح سليم إلا فى جسم سليم ، وقد ظل طاغور يشهر من أدبه أسلحة مهلكة على تعاليم غاندى ، وبذلك تم له الفوز ، وانتشل من يديه شباب بلاده الذين أخذوا يدمنون قراءة قصصه بشغف وتلذذ ، بعد ما كانوا يكرهونها بسبب غاندى

قصص طاغور

كان طاغور شاعراً قبل أن يكون قصصياً ، وأشعاره هى غناء الروح ، وبلسم القلوب الجريحة ، وشفاء النفوس المكلومة ؛ وأغانيه هى هتاف الغاب ، وموسيقى أحراش البنغال ، ورفيف النسيم الحلو على حقول الأرز فوق عُدْوَتَى الكنج ! ومن أمتع أشعاره التى كتبها بالانجليزية (البستانى Gardener) حيث تبدو مهارته فى مزج الحب بالبكاء ، والألم بالغزل ، والعبوس بالابتسام

وبين طاغور الشاعر وطاغور القصصى صلة لا تنفصم ، ذلك أنه يضفى روحه الشعرية على قصصه ، فتخرج قصائد طويلة منثورة تنقع غلة القلب ، وتؤدب النفس ، وتسمو بقارئها فوق أدران البشرية ، وتحلق به فى سموات من النقاء والصفاء

بيد أننا نفضل أقاصيص طاغور على قصصه ، وذلك لبراعته التامة فى كتابة القصة القصيرة ، وفشله الذريع فى القصة الكبيرة ؛ فمن يقرأ مثلاً روايته (الضحية) ، أو (وكيل البريد) ، أو (خالتى) ، أو (الناسك) ... ... الخ يروعه من طاغور ذلك الخيال الخصب ، والتفكير العميق ، والفن الكامل فى كتابة القصة أو الرواية

ولكنا ، بكل أسف ، حينما قرأنا قصته الطويلة (الغرق) (The Wreck) وجدناه ينحدر عن ذروته السامية التى كان يحلق فوقها فى القصة القصيرة ، وذلك لأنه كان كلما وقع خلال القصة فى ورطة ، أو وصل إلى عقدة لم يجد منها مخرجاً الا بالركون الى (الصُّدفة) ، ولذا كانت القصة كلها مصادفات قللت كثيراً من قيمتها كقصة من فن طاغور . ذلك بالرغم مما فيها من طلاوة الأسلوب وحلاوة الروح الشعرى الجميل الأخاذ

(يتبع)

البريد الأدبي

العيد المئوي للصحافة الشعبية

نشأت الصحافة الحديثة منذ نحو قرن ونصف قرن ، وكثير من الصحف الأوربية الكبرى قد جاوز العيد المئوى ؛ ولكن الصحافة الشعبية أو بعبارة أخرى الصحافة المعاصرة التى نقرؤها اليوم ترجع إلى مائة عام فقط ؛ وكانت الصحف قبل مائة عام أداة من أدوات الترف ، لا يحرزها سوى الأغنياء ، وكانت فى الغالب صحفاً أدبية فلسفية ، قلما تفسح لما نسميه اليوم بالأخبار المحلية مجالا كبيراً . وقد أدرك سر هذا النقص صحفى فرنسى بارع هو أميل دى جيراردان ؛ وكان كاتباً ساحر الأسلوب بدأ حياته الأدبية بإصدار رواية عنوانها « أميل » يقص فيها سيرة حياته ؛ ثم خطر له أن يصدر مجلة أسبوعية أدبية ، ينقل فيها أحسن المقالات والقصص عن الصحف الأخرى وسماها « السارق » دلالة على خطتها فى النقل ؛ بيد أنه تطرف بعد ذلك إلى مشروع أهم ، فقد خطر له أن يصدر صحيفة يومية شعبية رخيصة الثمن تحتوى على أهم الأخبار الأخيرة ؛ وفى أوائل يوليه سنة ١٨٣٦ ، أعنى منذ مائة عام ، أصدر جيراردان جريدة الصحافة La Presse وقدمها للجمهور بنصف الثمن المعتاد وجعل اشتراكها السنوى أربعين فرنكا فقط ، فكانت فكرته فتحاً جديداً فى عالم الصحافة ، ولأول مرة أقبل الجمهور المتوسط على اقتناء الصحف ، واستطاع لأول مرة أن يقرأ الأخبار الأخيرة بصورة منتظمة متوالية

وكان هذا بدء الصحافة المعاصرة التى تطورت حتى أصبحت بمحتوياتها الأدبية والخبرية ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية

طبعة جديدة من الأنيس المطرب

تصدر الآن بالمغرب الأقصى (بمدينة الرباط) طبعة جديدة لتاريخ ابن أبى زرع الفاسى المسمى « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ؛ وقد ظهر من هذه الطبعة الجديدة الجزء الأول ، وحققه وعلق عليه الأستاذ محمد الهاشمى الفيلالى من أدباء فاس ، وأخرجته شركة النشر المغربية التى ألفت أخيراً بالمغرب من بعض الأدباء لتعنى باحياء الآداب المغربية

وتاريخ ابن أبى زرع مشهور بين التواريخ المغربية ، وهو يتناول تاريخ المغرب ودوله منذ دولة الأدارسة إلى زمن المؤلف (سنة ٧٢٦ هـ) ؛ وقد ظهر لأول مرة فى مدينة أوبسالا فى السويد محققاً بعناية المستشرق كارل تورنبرج ، ومقروناً بترجمة لاتينية (سنة ١٨٤٣ — ١٨٤٦) ؛ ثم طبع بعد ذلك بفاس أكثر من مرة . ولكن هذه الطبعات جميعها كانت مشحونة بالأخطاء التاريخية واللغوية ؛ ولهذا رأى بعض أدباء المغرب أن الوقت قد حان لاظهاره فى ثوب جديد

وقد تصفحنا الجزء الذى صدر منه الطبعة الجديدة فألفينا فيه أثر العناية بالتحقيق والتصحيح ، وهو يقع فى أكثر من مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير ، ويشمل تاريخ المغرب حتى أوائل القرن الخامس الهجرى (سنة ٤١٠ هـ)

فنرجو لاخواننا الأدباء المغاربة كل توفيق ونجاح فى مشروعهم الأدبى ؛ ونرجو أن يتلو إخراج الأنيس المطرب اخراج بعض الآثار المغربية الأخرى ، ولا سيما المخطوط منها

وفاة الدكتور سنوك هور جرونيه المستشرق الهولندى

توفى فى ليدن المستشرق الهولندى الدكتور سنوك هور جرونيه يوم السبت ٤ يوليو فى الحادية والثمانين من عمره

وقد ولد فى ٨ فبراير سنة ١٨٥٧ ، وبعد ما أتم دراسته العالية فى علوم الفقه واللغات الشرقية رحل إلى بلاد العرب ، وكانت رحلته اليها متأخرة عن رحلة السر رتشرد برتون الشهورة نحو ثلاثين سنة ، فتمم بالمعلومات التى جمعها معلومات السر تشرد برتون ومباحثه

نزل فى جدة فى خريف سنة ١٨٨٥ ، فقضى على سواحل

البلاد خمسة أشهر قبل أن يقصد إلى مكة المكرمة فى زى طبيب عالم ، فقضى فى مكة خمسة أشهر درس فى خلالها المجتمع العربى هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها ، ولولا وشاية قنصل فرنسا به لاستطاع أن يطيل اقامته هناك ، ولكن قنصل فرنسا أنبأ السلطات التركية بوجود هورجرونيه فى مكة فأخرج منها

وفى سنة ١٨٨٨ — ١٨٨٩ أصدر كتابه «مكة» فى مجلدين وقد جاء وصفه لمدينة الكعبة مؤيداً لدقة وصف بوخاردث ؛ أما وصفه للمجتمع العربى فى مكة فكان دقيقاً ومسهباً : وصف الأسواق والعبيد والأماكن المقدسة وحراسها والبيوت والأعياد والولائم والفضائل والنقائص ، وكان بحثه فى حياة المدن بلاد العرب مدققاً ؛ ولكن يقال أنه كان يعوزه شىء من العطف لكى يخرج تاماً ، وهذه الصفة صفة العطف مكنت بالجريف ودرطى من الامتياز والتفوق فيما كتباه عن حياة الجزيرة

وبعد ما أتم هورجرونيه كتابه عن بلاد العرب رفض أن يعين أستاذاً للغة العربية فى جامعة كمبردج خلفاً للأستاذ روبرتسن سمث ، وكذلك رفض ما عرض عليه من هذا القبيل فى ألمانيا وليدن ، مفضلاً أن يمضى فى دراساته الاسلامية فى جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا حيث بقى بضع سنوات مستشاراً للحكومة فى الشؤون الاسلامية

وعاد الى هولندا سنة ١٩٠٦ وقبل أن يشغل منصب أستاذ للغة العربية فى جامعة ليدن . وفى سنة ١٩٠٧ عين مستشاراً فى الشؤون الهندية والعربية لحكومة جزائر الهند الشرقية الهولندية

مجلة خاصة لمسائل الأجناس

صدرت أخيرا بمدينة شتوتجارت بألمانيا مجلة خاصة لمسائل الأجناس بعنوان « مجلة لمباحث الأجناس Zeitechrift fur Rass-enkunde » والمعروف أن مسألة الأجناس تتخذ فى المانيا الحاضرة أهمية خاصة ؛ وأنها فى مقدمة النظريات الهتلرية التى تسيطر اليوم على المانيا ، وأن الآرية وغير الآرية أصبحت أساس الدولة النازية الحاضرة ، وأساس الاضطهاد المنظم الذى تنظمه المانيا ضد اليهود وضد جميع الأجناس السامية ؛ ومن ثم فقد أضحت المباحث والنظريات الخاصة بالأجناس فى مقدمة المسائل التى يعنى بها الكتاب والعلماء الألمان اليوم ؛ وقد صدر من المجلة المشار اليها عددان حافلان بهذه المباحث ؛ ومحررها الدكتور فون ايكشتيت ، وافتتحها ببحث من قلمه يذهب فيه الى أن نظريات الأجناس قد تطورت اليوم تطورا عظيما ؛ فمنذ عصر « تيريك » حيث كانت الجمجمة البشرية تقاس فى مائة موضع لكى تعرف خواصها ، نرى علم الأجناس اليوم يميل الى الحياة ، ويميل بالأخص الى بحث الخواص النابية ؛ وعرض الى مسألة الذكاء ، وكونه هبة لبعض الأجناس ؛ وكون الموهوبين يهاجرون دائماً من القرية الى المدينة ، فتقفر القرية دائماً من الذكاء الموهوب ؛ وهذا عامل يسىء فى تكوين المجتمع الحاضر ؛ وفى المجلة الحاضرة بحوث أخرى فى هذا الباب لأشهر العلماء الألمان الذين يشتغلون بها

كتاب جديد لمسيو هانوتو

المسيو هانوتو الوزير الفرنسى السابق مؤرخ كبير ، وله عدة مؤلفات تاريخية قيمة ، وقد اشترك فى وضع بعض أجزاء سلسلة التاريخ المصرى التى تصدر بالفرنسية ، وإن كان هذا الاشتراك لم تسفر عنه نتائج علمية باهرة . وقد أصدر أخيراً كتاباً عن علائق نابليون وأسرة بوهارنيه الشهيرة التى تنتمى اليها زوجته الأولى جوزفين بوهارنيه عنوانه « آل بوهارنيــــه والأمبراطور » Lss Beauharnais et l' Empreur وكان قد نشر قبل ذلك كتاباً عن الملكة هورتنس ابنة جوزفين من زوجها الأول ، وفى الكتاب الجديد يقدم الينا مسيو هانوتو سلسلة من الرسائل التى وجهتها جوزفين الى ولدها البرنس أوجين ؛ وتلقى هذه الرسائل كبير ضوء على الصراع الذى كان ناشباً وراء الستار بين آل بونابارت (أسرة الأمبراطور) وبين آل بوهارنيه (أسرة الأمبراطورة) ؛ وقد كانت أسرة الأمبراطورة دائماً على أهبة للتفاهم والوفاق كما يدل على ذلك خطاب من جوزفين لولدها تقول فيه : « إن أولئك الناس لا حق لهم جميعاً فى بغضنا ، ولو أحسنوا موقفهم لما وجدوا أصدقاء أخلص منا »

وقد كان نابليون يدافع دائماً عن جوزفين حتى بعد طلاقها منه ، وكانت جوزفين تخلص له دائماً حتى بعد زواجه ؛ ولكنها بعد مصائب سنة ١٨١٤ ، أدركت أن الخاتمة قد وقعت ، وكتبت إلى ولدها تقول له إنه غدا حراً لا تربطه نحو الأمبراطور رابطة ولاء بعد ، وأنه يستطيع أن يعمل لأسرته بعد أن اختفى الأمبراطور من الميدان ؟